جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

"المثانى القرآنية"

فى ضوء التكْرار مفهوماً وضوابط وآفاقا

دكتور/ عبد الرحمن محمد عبد المتعال

مدرس التفسير وعلوم القرآن
فى كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

مستلة من

حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
العدد التاسع والعشرون، لعام ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م
والمودعة بدار الكتب تحت رقم ٢٠١٠/٦١٥٧

(المجلد الثانى)

دار الأندلس للطباعة-أمام كلية الهندسة-عمارات الزراعيين-شبين الكوم ت ٠٤٨٢٢٢٢٠٩٠

المقدمة:

الحمد لله المانِح مَنْ شاء ما شاء، والغافر دون الشرك بحكم المشيئة لمن أساء، والمُصْطَفِى مِنْ الجنس الإنسانى الرُّسُل والأنبياء، ومن أَتْبِاعهم من جَعَلَهُم رُحَمَاء بَيْنَهُم وعَلَى الكفار أشِداء، وَمِنَّ خَلَفِهم من آثر الاهتداء والاقتداء، وجانَب التَّنَكُّب عن سُبُلِهم الواضحة، والاعتداء، ولزم الجماعة عند افتراق ذَوِى الشِّقاق فَحَسَم الدَّاء، وتمَسَّك بالكتاب والسُّنَّة، فَمُنِحَ الشِّفَاءَ واسْتَوْضَح الطريق بهما إلى الله تعالى وتَحَقَّق الإنباء، وتدبر كتاب الله فشاهَدَ المُعْجزة القاطعة والبراهين الساطعة وعَرَف الأَنْباء، وعَلِم مُرَاده (ﷺ) بقوله: (وإنما كان الذى أوتيته وحياً)[1]، فأعْمَل جُهْدَهُ فى تَدَبُّره الفِكر والاعتناء، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادةَ من وُفِّقَ فالْتَزَم بشرُوطها حق الوفاء، وأشهد أن سيِّدنَا محمد عبده ورسوله، المُعْطَى فى القيامة المقام المحمود واللواء، شَهَادةً نَرْجُوا بها من شفاعته العظمى الحُظْوة والاعتناء، ويجعل لنا دار الخلد المصير والجزاء، وصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الحائزين فى وفائهم باتِّباعه السَّبْقَ والثَّناء، والأُسْوة والقُدْوَة لمن بعدهم، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد: فإن كتاب الله تعالى أَحَقَّ ما أُنْفِقَت فيه نَفَائس الأَعْمَار، وقُصِر على اعتباره المَلَوان: الليلُ والنهارُ، واعْتُمِدَ مَوْئِلاً وملاذاً، واعْتُصِمَ بعُرْوَته الوُثْقَى وَزَراً [2] مُنجياً وعِيَاذاً، واستُنْزِلَت به البركات، واهْتَدى بواضحات أنواره عوالم الأرض والسموات، فهو الهدى والنور، والشفاء لما فى الصدور، والوَاقِى لمن تَمَسَّك به واعْتَلَقَ بسببه من كل مخُوف ومَحْذُور، والنعمة التى قصَّر عن الوفاء بشكرها كل

---

[1] أخرجه: أبو داود فى كتاب: السنة باب: لزوم السنة من حديث المقدام بن معد يكرب ٤/ ٣٢٨ وقال الألبانى صحيح، وأحمد فى المسند ٤/ ١٣٠ وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

[2] الْوَزَر : محرّكه الجبل المنيع وكُلُّ مَعْقِل

مكتوب، ومسطور، وأنَّى يُتَصَوَّر الكفاء وَيُتَوَهَّم الوفاء بشُكْر ﴿**قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ**﴾ "المائدة: ١٥". (١)

هذا وإن مصطلح التَّكْرَار قد دارت حوله الكثير من الدراسات بياناً لمفهومه، ومهمته، واكتشاف مجالاتِ أَرْحَبَ له، ومع ذلك كله فإن هذا المصطلح لا يزال مبتور المعنى محدود الحركة والعطاء خارج دائرة القرآن.

فالتَّكْرَار وهو فن القول الرفيع ليس مجرد صيغ أو قوالب متماثلة، وإن بدا كذلك فى بعض مظاهره، وإنما هو عناصر أصيلة متحركة متفاعلة، شأنه فى ذلك شأن هذه الطبيعة المشهودة المتكررة فى كثير من مظاهرها، والتى لا يكاد الكثير فى معظم الأحيان يشعر بها لتحرك عناصرها وتنوعها وتفاعلها مع غيرها من عناصر الطبيعة.

والتَّكْرَار لا يقتصر على أداء مثل هذه الأغراض – كالتأكيد والتحذير والإغراء والمبالغة، وغير ذلك – أو على أداء دَوْرٍ إضافيٍّ لزيادة فَضْل الكلام وتحسينه، وإنما يُعْطِى عطَاءً حقيقياً ويؤَدِّى دوراً أساسياً، على مستوى تحقيق أهداف الخطاب القرآنى.

لهذا كان اختيارى بعون الله وتوفيقه لهذا البحث الموسوم بـ(المثانى القرآنية فى ضوء التَّكْرَار مَفْهُوماً وضَوَابطَ وآفاقاً).

وكان من دوافعى لاختيار هذا الموضوع عدة أمور أهمها:

أولاً: أنه يتعلق بمصطلح قرآنى وهو (المثانى).

ثانياً: أنه يتعلق بأشرف الكتب وأصحها القرآن الكريم.

---

(١) مَلَك هذا الكلام تلابيب قلبى ، واستولى على عقلى ، لذا آثرته بالتقديم ، وهو جزء من مقدمة أبى جعفر بن الزبير لكتابه : (ملاك التأويل) ص ١: ٣، طبع دار النهضة العربية .

ثالثاً: رغبتى فى خدمة القرآن العظيم، والعيش الكريم فى رحابه وبين معانيه الثرة، وحِكَمِه وأَحْكامه الوافرة الْجَمَّة.

رابعاً: جمع أغلب ما يتعلق بهذا الموضوع فى هذا البحث – قدر الطاقة – لِيَسْهُل مَأْخَذه وَيَقْرُب على طالبه.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون فى تمهيد ومبحثين تَسْبَقُهما المقدمة، وتَقْفُوهما الخاتمة والفهرست.

أما **المقدمة:** فقد تناولت فيها بعد الحمد لله والثناء عليه بما هو أهله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ أهمية الموضوع، ودوافع اختيارى له.

وأما **المبحث الأول**: وعنوانه: (مفهوم المثانى القرآنية) ويشتمل هذا المبحث على تمهيد وأربعة مطالب:

أما **التمهيد:** فعنوانه: (المثانى فى اللغة).

وأما **المطلب الأول**: فعنوانه: (المثانى صفة للقرآن) وهو يَخْتَصُّ بالمثانى كما وردت فى آية (سورة الزمر).

وأما **المطلب الثانى**: فعنوانه: (المثانى صفة لسورة الفاتحة) وهو يَخْتَصُّ بالمثانى كما وردت فى (سورة الحجر).

وأما **المطلب الثالث**: فعنوانه: (جهود تراثية) وتناولت فيه ما قُدِّم من جهود تراثية فى هذا المفهوم.

وأما **المطلب الرابع**: فعنوانه: (المثانى ضوابط اصطلاحية).

وأما **المبحث الثانى**: فعنوانه: (آفاق المثانى القرآنية) ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: وهو بعنوان: (المثانى ونظام السورة) وفيه ظهر أن فهم آفاق المثانى يكمن فى إدراك صلتها بنظام السورة القرآنية.

المطلب الثانى: وهو بعنوان: (المثانى فى ضوء التفسير التحليلى) وفيه بينت أبرز ملامح المثانى القرآنية من خلال السياق الذى تَتَرَدَّدُ فيه، وذلك من خلال مجموعة من الشواهد.

المطلب الثالث: وهو بعنوان: (المثانى فى ضوء التفسير الموضوعى) وفيه حاولت تحديد أبرز ملامح المثانى من خلال صلتها بهذا اللون من ألوان التفسير.

وأما **الخاتمة**: فتتضمن أهم النتائج التى انتهى إليها البحث، والمصادر والمراجع، ودليل محتويات البحث.

منهجى فى كتابه البحث:

فقد راعيت عند كتابتى الأمور التالية:

الأول : عزوت الآيات إلى مواضعها من المصحف الشريف، مع ضَبْطِ الآيات بالشَّكل وَذِكْر رقم الآية واسم السورة – إلا ما تكرر – حسب المُثْبت فى المصحف الشريف.

الثاني: تخريج الأحاديث والآثار تخريجاً مختصراً، اقتصرت فيه على عزو الحديث إلى مواضعه، مع بيان حَالِه صحَّةً أو حُسْناً أو ضَعْفاً مُسْتَدِلا فى ذلك بأقوال أهل الاختصاص من خلال كتبهم فى الجرح والتعديل.

الثالث: الحرص على الموضوعية فى البحث بالتزام المقصود، وتحرير المراد، وتحقيق القضايا إلى غير ذلك من الأمور التى أَفْرَدْت صُلْب البحث لموضوعاته، وجعلت الهامش لما يَعِنُّ من المسائل الفرعية بالنسبة للمبحث أو المطلب.

الرابع: التزمت بالتوثيق العلمي لما أُورِدهُ فى جميع البحث بذكر اسم المرجع أو المصدر بالجزء والصحيفة، إلا فى تخريج الأحاديث فكنت أذكر الكتاب أو الباب ورقم الحديث إلا ما شذ عن ذلك وندر.

الخامس: ترجمت لبعض الأعلام الواردة أسماؤهم فى صلب البحث.

السادس: أَلْحَقْت في آخر البحث فهرسا للمصادر والمراجع التى رَجَعْت إليها أثناء كتابة هذا البحث، وذكرت معلومات النشر.

هذا وقد بذلت غاية جهدى فى هذا البحث المتواضع، فإن كنت قد أصبت فيه فهو من فضل الله تعالى وتوفيقه، وإن تكن الأخرى فمنى، والله تعالى أسأل دائماً أن يتجاوز عنا إن نسينا أو أخطأنا، وأن يرزقنا بمَنِّه وَكَرَمه الإخلاص والقبول، وأن يجعل هذا العمل كله خالصاً لوجهه الكريم، إنه سميع قريب مجيب.

كتبه الفقير إلى الله تعالى
عبد الرحمن محمد عبد المتعال

المبحث الأول
مفهوم المثانى القرآنية

تمهيد: المثانى فى اللغة:

وردت مادة (ثنى) فى "لسان العرب" بأكثر من معنى فى أصل اللغة: ثَنَى الشيء ثَنْياً: ردَّ بعضه على بعض، وقد تَثَنَّى وانْثَنَى وأثناؤه ومثانيه: قُوَاه وطاقاته[1] واحدها ثِنْيٌ – بكسر الثاء وسكون النون –، ومَثْنَاة بفتح الميم وسكون الثاء، ومِثْنَاة بكسر الميم وسكون الثاء – وأثناء الحَيَّة: مطاويها إذا تَموَّت ... وأثناء الوادى ومثانيه ومحانيه: معاطفه. **ومعنى آخر** قريب من سابقه هو الثِّنْى– بالثاء المشددة المفتوحة والنون الساكنة – أى: ضم واحد إلى واحد، والْثِّنْى– بالثاء المشددة المكسورة والنون الساكنة – الاسم، ويقال: ثِنْىُ الثوب لما كُفَّ من أطرافه، وأصل الثِّنْى: الكف **ومعنى ثالث** قريب مما سبق أيضاً حين نقول: ثنى الشيء، أى: جعله اثنين، **ومعنى رابع** يتصل أيضاً بكل المعانى السابقة، وهو التَّكْرَار والترداد، وهو ما يظهر من قول العلامة ابن منظور: وقول الله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ "الحجر: ٨٧" المثانى من القرآن: ما ثُنِّىَ مرة بعد مرة، وقيل: فاتحة الكتاب، وهى سبع آيات، قيل لها: مثانٍ لأنها يُثْنى – بسكون الثاء – بها فى كل ركعة من ركعات الصلاة وتعاد فى كل ركعة، قال أبو الهيثم: سميت آيات الحمد مثانى، واحدتها مثناة، وهى سبع آيات، وقال ثعلب: لأنها تثنى مع كل سورة ... وفى نفس المعنى يضيف ابن منظور: وقال الفراء فى قوله ﷻ: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ**﴾ "الزمر: ٢٢"اى: مكرراً، أي: كرر فيها الثواب

---

[1] أى: طَيَّاته أو مطاويه حين يُردّ بعضه على بعض أو يُثَنَّى.

والعقاب[1]. وينقل عن أبى عبيد قوله: وسمى القرآن مثانى لأن الأنباء والقصص تُثنيت فيه. **ومعنى خامس** مأخوذ من الثناء – فيقول ابن منظور فى وصف الفاتحة بالمثانى: ويجوز أن يكون –والله أعلم – من المثانى مما أُثْنِىَ به على الله – تبارك وتقدس – لأن فيها حمد الله وتوحيده وذكر ملكه يوم الدين، ومعنى سادس قريب من المعنى الرابع، وهو قول ابن منظور: والمثانى من أوتار العود: الذى بعد الأول، واحدها مَثْنَى ... فالأوتار التى بعد الوتر الأول تعد – بصورة ما – تكريراً له وقياما بنفس وظيفته.

وَيُرَدَّد ابن فارس فى معجمه: مقاييس اللغة مَدْلُولاتٍ قريبة مما ورد فى اللسان من بينها هذا المدلول الوثيق الصلة بهذا الموضوع، حين يقول: والمثناة: ما قُرِئ من الكتاب وكُرِّرَ – قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي**﴾ أراد أَنَّ قراءتها تثنى وتكرر، ويردد الإمام الزمخشرى فى أساس البلاغة تقريباً نفس المدلولات ومن عباراته: وتَثَنَّى فى صدرى كذا أى: تردد، والإمامان الزمخشرى وابن فارس أسبق زمناً بالطبع من العلامة ابن منظور، لكنى بدأت باللسان لأنه أكثر استقصِاءً وتوسُّعاً من جهة، ولأنه يورد من آراء العلماء ممن سبقوا على ابن فارس والزمخشرى من جهة أخرى.

وفى الصحاح للجوهرى وتاج العروس للزبيدى تَتَرَدَّدُ نفس المدلولات السابقة للمادة على وجه العموم، مع العلم بأن لهذه المادة فى المعاجم السابقة مدلولات أخرى لكنها بعيدة عن الموضوع، وذلك كالثُّنْيَا بالثاء المشددة المضمومة والنون

[1] معانى القرآن: للفراء ٢/ ٤١٨ تحقيق ومراجعة: محمد على النجار، مطبعة: دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ط ٣ ١٤٢٢هـ– ٢٠٠٢م.

الساكنة وهى ما يُسْتَثْنى من جملة الشيء، والثَّنِيَّ والثنيَّة المتعلقان بالأسنان –ونحو ذلك–[1].

المطلب الأول: المثانى صفة للقرآن

تَعَرَّضَ الْمُفَسَرون لبيان المقصود بالمثانى مرتين:

مرة من خلال قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ "الحجر: الآية: ٨٧"، وهو الذى تقع المثانى فيه صفة لطائفة من القرآن الكريم أو لسورة محددة منه.

ومرة من خلال قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ "الزمر: الآية: ٢٣" وهو الذى تقع المثانى فيه صفة لكتاب الله كله.

وحول (المثانى) كما وردت فى هاتين الآيتين يدور المطلبان الأول والثانى من هذا المبحث.

أما **المطلب الأول** – كما يظهر من عنوانه – فيَخْتَصُّ بالمثانى كما وردت فى آية سورة الزمر، وأما **المطلب الثانى** فسوف يَخْتَصُّ – إن شاء الله – بالمثانى كما وردت فى آية سورة الحجر.

---

[1] يراجع فى مادة (ثنى) المصباح المنير ١/ ٨٥ طبع: المكتبة العلمية بيروت، والمعجم الوسيط ١/ ٢١٠ مجمع اللغة العربية، وتهذيب اللغة للأزهرى ٥/ ١٠٨، ولسان العرب ١٤/ ١١٥ طبع: دار صادر بيروت، ومختار الصحاح ص٩٠ طبع بيروت، ١/ ٣٧٨: ٣٨٢ تقديم: الشيخ عبد الله العلايلى، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، طبع: دار لسان العرب بيروت، ويراجع أيضاً نفس المادة فى غير ما ذكر.

وأبدأ هذا المطلب بالتعرض لأهم آراء المفسرين الواردة فى سياق تناولهم لقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً**﴾ على النحو التالى:

الرأى الأول: وأساس هذا الرأى أن القرآن (مثانٍ) بمعنى أن التكرير والترديد من أبرز سماته فى صيغه وتعبيراته وأخباره وقصصه وتوجيهاته، **وأزيد ذلك إيضاحاً من كلام المفسرين:**

يقول الضحاك: (مثانى: ترديد القول ليفهموا عن ربهم ﷻ، ويقول عكرمه، والحسن: ثنى الله فيه القضاء، وزاد الْحَسَنْ: تكون السورة فيها آية وفى السورة الأخرى آية تشبهها)[١].

وأوضح من ذلك قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: (مثانى: مُرَدَّد، رُدِّد موسى فى القرآن وصالح وهود والأنبياء عليهم السلام فى أمكنة كثيرة)[٢]. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: (مثانى) قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويُرَدَّد بعضه على بعض[٣]. وقال الشهاب الألوسى بما هو أوضح وأكثر تفصيلا فى هذا الرأى: [والمراد بكونه (متشابها)][٤] هنا تشابه معانيه فى الصحة والأحكام والابتناء على الحق والصدق واستتباع منافع الخلق فى المعاد والمعاش، وتناسب ألفاظه فى

---

[١] ينظر فى ذلك: جامع البيان ٢٣/ ٢٤٩: ٢٥٠ برقم ٢٣١٨٩ و ٢٣١٩٠، والدر المنثور ٥/ ٣٥٨، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٠.

[٢] ينظر فى ذلك: جامع البيان ٢٣/ ٢٥٠ رقم ٢٣١٩٤، والدر المنثور ٥/ ٣٥٨، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٠.

[٣] ينظر فى ذلك: جامع البيان ٢٣/ ٢٤٩ رقم ٢٣١٨٨، الدر المنثور ٥/ ٣٥٨، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٠.

[٤] أحب أن أوضح أن تفسير مثانى لا ينفك عن تفسير متشابها فى هذه الآية، وسوف يظهر فيما بعد أهمية هذا الربط بينهما.

الفصاحة، وتجاوب نظمه فى الإعجاز، وما أشبه هذا بقول العرب فى الوجه الكامل حُسْناً: وجه متناصف كأن بعضه أنصف بعضاً فى القسط من الجمال، وقوله تعالى: (مثانى) صفة أخرى لـ(كتاباً) أو حال أخرى منه، وهو جمع (مُثَنىً) بضم الميم وفتح النون المشددة على خلاف القياس[١]، إذ قياسه (مُثَنَّيات) بمعنى مُرَدَّد ومُكَرَّر لما كرر وثنى من أحكامه ومواعظه وقصصه، وقيل: لأنه يثنى فى التلاوة، وَجُوِّز أن يكون جمع (مَثْنى) بالفتح مخففاً من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما كان قوله تعالى: ﴿**ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ**﴾ "الملك: الآية: ٤" بمعنى كَرَّةً بعد كَرَّةٍ[٢]. وكذلك لُبَّيْك وسَعْدَيْك[٣]، والمراد أنه جمع لمعنى التكرير والإعادة، كما ثُنِّى ما ذكر[٤] لذلك، لكن استعمال المثنى فى هذا المعنى أكثر لأنه أول مراتب التَّكْرَار[٥]][٦].

---

[١] الذى ثبت فى المعاجم كما سبق من قبل أن مثانى جمع (مَثْنَاة) بفتح فسكون، أو (مِثْناة) بكسر فسكون، وقد نقل الألوسى رأيه هذا عن الزمخشرى فى الكشاف/ ٣٤٤ طبع: دار عالم المعرفة.

[٢] أى: ليس المقصود بـ"كرتين": مرتين فقط، بل المقصود التكرار.

[٣] جاء فى (الصحاح) مادة (لبب): أن أَلَبَّ – بالباء المشددة المفتوحة – بالمكان إلباباً بمعنى أقام به ولزمه، وأن (لبيك) مثنى على معنى التأكيد، أى أنا مقيم على طاعتك إقامةً بعد إقامةٍ. وجاء فى مادة (سعد): أن سعديك من الإسعاد وهو المعاونة، وقولهم (سعديك) أى إسعاداً لك بعد إسعاد، والذى يقصده الألوسى أن قولنا: (لبيك وسعديك) يراد منه التكرار، وليس مجرد مرتين كما سبق أن ذكرت فى كرتين.

[٤] يقصد بذلك: كرتين ولبيك وسعديك.

[٥] أى: استعمال المثنى فى مثل كرتين ولبيك وسعديك وحنانيك الذى يرمز إلى تكرار الطلب أو الابتهال فى كل منها، حيث إن التكرار يبدأ من أول إعادة للشىء أو من تثنيته.

[٦] روح المعانى ٨/ ١٤/ ١١٦، ١٣/ ٢٣/ ٣٨٢.

وبهذا الرأى أيضاً قال كثير من المفسرين كالإمام الطبرى، والقرطبى . وأبى حيان، وأبى السعود العمادى على اختلاف بينهم فى العبارات والتفاصيل][1].

الرأى الثانى: وعماده أن القرآن (مثان) بمعنى أنه يُكْثِر من ذِكْر الأمور أزواجاً أو متقابلات مثنى مثنى، وفى ذلك يقول الإمام ابن كثير: [وقال بعض العلماء ويروى عن سفيان بن عيينة معنى قوله تعالى: ﴿**مُتَشَابِهاً مَّثَانِيَ**﴾ إن سياقات القرآن تارة تكون فى معنى واحد فهذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشىء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه هذا فهذا من المثانى كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ "الانفطار: ١٣-١٤"، وكقوله ﷻ: ﴿**كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ**﴾ .... إلى أن قال ﴿**كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ**﴾ "المطففين الآيات: ٧-١٨" ﴿**هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ**﴾ إلى أن قال ﴿**هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ**﴾ ص: الآيات: "٤٩- ٥٥"][2].

وهذا الرأى هو اختيار الإمام فخر الدين الرازى وفيه يقول: (وبالجملة فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زَوْجَيْن زَوْجَين مثل: الأمر والنهى، والعام والخاص، والْمُجَمل والمُفَصَّل، وأحوال السماوات والأرض، والجنة والنار، والظلمة والضوء، واللوح والقلم، والملائكة والشياطين، والعرش والكرسى، والوعد والوعيد، والرجاء والخوف، والمقصود منه بيان أن كل ما سِوَى الْحَقِّ زَوْجٌ، ويدل على أن كل شىء مُبْتَلى بِضِدِّه ونقيضه، وأن الفرد الأحد الحق هو الله سبحانه)[3].

---

[1] ينظر: تفسير الطبرى ١٢/ ٢٣/ ٢٤٩: ٢٥٠، والقرطبى ٨/ ٢٢٢، وأبى حيان ٩/ ١٩٥، وأبى السعود ٤/ ٤٦٦.

[2] تفسير ابن كثير ٤/ ٥٠.

[3] التفسير الكبير للفخر الرازى ١٣/ ٤٢٩: ٤٣٠ طبع: دار الغد العربى.

الرأى الثالث: يقول بأن القرآن (مثان) لأنه يُثَنَّى فى التلاوة فلا يُمَلُّ، وهو أحد الأقوال التى حكاها الإمامان الزمخشرى والألوسى[١]، وذكره أيضاً مصَنِّفُوا (معجم ألفاظ القرآن الكريم) الصادر عن مجمع اللغة العربية ضمن آراء عدة لم يرجِّحوا أيًّا مِنْها[٢].

وهذا الرأى – مع الرأى التالى – يَسْتَلْهِمَان قول الرسول ﷺ فى حديث له عن القرآن: (..لا يَشْبَع منه العلماء ولا يَخْلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه ...)[٣].

الرأى الرابع: فحواه أن القرآن مثان لما يَتَرَدَّدُ ويَتَجَدَّدُ فيه من العجائب والأسرار والفوائد حالاً بعد حال، وهو من اجتهادات صاحب (تاج العروس) خلال حديثه

---

[١] ينظر: الكشاف ٣/ ٣٤٤، روح المعانى ١٣/ ٢٣/ ٣٨٢.

[٢] تراجع مادة (ثنى) فى هذا المعجم، والآراء الأخرى التى ذكروها ثلاثة: أحدها: الرأى الثانى الذى سبق ذكره، وثانيها: الرأى الرابع الذى سأذكره، وثالثها: مأخوذ من الثناء لاشتمال القرآن على ما هو ثناء على الله.

[٣] المذكور جزء من حديث طويل أخرجه الإمام الترمذى فى كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء فى فضل القرآن ٥/ ٢٠ رقم ٢٩٠٦ من حديث على بن أبى طالب، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفى الحارث مقال، والدارمى فى كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن ٢/ ٢٩٤: ٢٩٥ رقم ٣٣٢٦ وفى إسناده: أبو المختار الطائى، قال على بن المدينى: لا يُعرف. وقال أبو زعة الرازى: لا أعرفه. وفيه أيضاً ابن أخى الحارث الأعور. قال عنه الذهبى: لا يدرى من هو، وليس له عند الترمذى سوى هذا الحديث، وفيه أيضاً: الحارث بن عبد الله. حاشية ٢٩٠٦ فى سنن الترمذى ٥/ ٢٠ طبع: دار الحديث القاهرة.

المطول[1] عن مادة (ثنى)، وهو ما ورد أيضاً كما أشرت فى معجم مجمع اللغة العربية.

والرأى الأخير ذكره مُصَنِّفوا هذا المعجم اعتماداً على الربط بين المثانى وثناء القرآن على الله، لَمْ أَطَّلِع عَلَيْه لدى أحد من المفسرين – حسبما قَرَأْتُ – خلال حديثهم عن المثانى صفة للقرآن، وإنما ذكره بعضهم خلال الحديث عن المثانى صفة للفاتحة، وَفَرْقٌ بين الْأَمْرَيْن كما سَيَظْهَرُ فى هذا المطلب.

وبعد ما سبق من أقوال أهل اللغة والتفسير يمكن القول بأن الرأى الأول فى معنى المثانى هو أرجح الآراء السابقة بشهادة اللغة، وشهادة المفسرين.

أما اللغة، فقد اسْتَعْرَضْتُ من قبل مادة (ثنى) فى أَهَمِّ معاجم اللغة، وبَيَّنْت أنَّ التَّكريرَ والتَّرْدِيدَ معنى واضح من معانيها الأساسية. **وأما المفسرون**، فإن كثيراً منهم – كما سبق – قال بهذا الرأى، وقَلِيلاً مِنْهُم ذَكَرَهُ مع غيره من الآراء دون ترجيح، أَوْ رَجَّحَ عليه بعضها.

هذا عن الرأى الأول، أما الثانى والثالث والرابع: فالواقع أنها وإن كانت مَرْجُوحة، لا تُصَادِم الرأى الراجح، ولا تُصَادم القرآن فى طبيعته أو فى مقاصده، فهى ذات دلالات صحيحة فى ذاتها، وإن كان غيرها أرجح حسب قواعد التفسير، فالقرآن يُثَنَّى ويُرَدَّدُ فى التلاوة بالفعل كما لا يُثَنَّى أو يُرَدَّد كتابٌ غيره، هذه خاصَّةٌ أَصِيلَةٌ من خَصَائصه التى يَتَفَرَّد بها.

وعلى كثره تلاوته وترديده لا يَبْلَى ولا يُمَل ولا تَنْفد أسراره لا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه كما وصفه رسول الله ﷺ.

---

[1] ينظر رأيه فى: تاج العروس ١٠/ ٦٠ طبع: دار الحياة.

وهو كذلك يقرن كثيراً بين الأزواج والمتقابلات فى أساليبه، مثنى مثنى، وهذه الخاصية البلاغية التى تعتمد على الأضداد لها أثرها المعروف فى تجلية الحقائق وتحريك النفوس.

لذلك فلا مانع من القول بمثل هذه الآراء تَجَوُّزاً وتوسُّعاً، وخاصة أن مدلول اللفظ (مثانى) يَحْتَملها وَيَّتسع لها، وذلك شأن كثير من ألفاظ القرآن وتعبيراته التى تَتَّسع لأكثر من معنى أو إيحاء دون أن يَصْطَدم بعضها ببعض، وهذه خاصية من خصائص إعجازه البيانى[1].

وقديماً وَجَّهَ سيدنا على بن أبى طالب ابن عمه عبد الله بن العباس ﷺ لمحاجة الخوارج، وطلب منه أن يحاجهم بالسنة، فقال له: يا أمير المؤمنين فأنا أعلم بكتاب الله منهم، فىُ بيُوتنا نَزَل، قال: صدقت، ولكن القرآن حَمَّال ذُو وُجُوه، تقول ويقولون، ولكن خاصِمْهُم بالسنن فإنهم لم يجدوا عنها محيصا ... [2].

وبعد: فإن من يَنْظر إلى هاتين الصفتين ﴿ **مُتَشَابِهاً مَّثَانِيَ** ﴾ نظرة شاملة متكاملة لتَبَيُّن وجه الصلة بينهما، يجد أنها فى الحقيقة صلة حميمة أحسَّ بها كثير من المفسرين والباحثين إحساساً جعل بعضهم يكاد يمزج بين هاتين الصفتينَ مزْجاً أثناء تَعَرُّضه لآية سورة (الزمر)، ومن ذلك قول ابن عباس –كما سبق – فى كلمة (**مَّثَانِيَ**): (القرآن يُشْبه بعضه بعضاً، وَيُرَدُّ بعضه على بعض)، فإن الذى يقرأ ذلك يظن أنه يفسر (**مُتَشَابِهاً**)، وليس (**مَّثَانِيَ**)، لأن المثانى لديه لا تبدو إلا نوعاً من

---

[1] ينظر: الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى. النوع التاسع والثلاثون فى معرفة الوجوه والنظائر ١/ ١٨٥ طبع: دار عالم المعرفة.

[2] السابق نفس الجزء والصحيفة.

المتشابه، حيث إنها ظاهرة أسلوبية مَبْنِية على التَّكْرَار، والتَّكْرَار يؤدى بالضرورة إلى التشابه.

وقوله: يُرَدُّ بعضه على بعض معناه: يستعان ببعضه على بعض، أو يُفَسِّر بعضه بعضاً، وذلك لا يَتَأَتَّى إلا بِنَوْعٍ من ترديد حقائقه ومعانيه خلال سُوَرِهِ كلها فى سياقات وأساليب متنوعة، فَيُجْمَع بينها لتكامل أطرافها، ويستعان بكل منها على غيره فى التفسير.

وفى ذلك أيضاً يقول الشيخ سيد قطب: (... هذا الكتاب المتناسق الذى لا اختلاف فى طبيعته ولا فى اتجاهاته، ولا فى روحه، ولا فى خصائصه، فهو (متشابه) وهو (مثانى) تكرر مقاطعه وقصصه وتوجيهاته ومشاهده، ولكنها لا تختلف ولا تتعارض، إنما تُعَاد فى مواضع متعددة وِفْقَ حكمة تتحقق فى الإعادة والتَّكْرَار فى تناسق وفى استقرار على أصول ثابتة متشابهة، لا تعارض فيها ولا اصطدام)[1].

من هذا الكلام يتبين أن الامتزاج بين الصفتين واضح أيضا كل الوضوح، ومع هذا الإمتزاج، ومع وجود ما يؤدى إليه لا يمكن أَنْ أُلْغِىَ الفرق تماماً بين الصفتين، بل أُمَيِّزُ بينهما كما مَيَّزَ القرآن حين ذكرهما صفتين له وليس صفة واحدة، وكما ميزت اللغة بينهما أيضاً فى مادتين من موادها – شَبَهَ وثَنَى – وليس فى مادة واحدة.

وذلك أَنَّ كتاب الله مُتَشَابه، أى يُشْبه بَعْضُه بعضاً، أو يَسْتَوِى بعضه مع بعض فى إعجازه وَرِفْعَةِ بَيَانِه، وفى تَنَاسُق حقائقه ومدلولاته، وتكاملها وتصديق بعضها

[1] فى ظلال القرآن للشيخ قطب ٥/ ٣٠٤٨ طبع: دار الشروق.

بعضا، وفى تَرَدُّد هذه الحقائق أيضاً، وانتشارها فى عموم سُوَرِه وآياته وِفْقَ طريقة مخصوصة وأهداف مقصودة.

وهذا يعنى أن هناك أسباباً ومظاهر متعددة لكون القرآن متشابهاً، من أهمها ما ذَكِرْتُه عن تردد حقائقه وانتشارها فى عموم سوره وآياته، فهذا التردد من أسباب تشابهه، كما أنه أيضاً مَظْهَر بارزٌ من أبرز مظاهره.

المطلب الثانى: المثانى صفة لسورة الفاتحة:

فيما سبق تناولت (المثانى) من خلال آية الزمر، وتَبَيَّن أنها تقع فيها صفة لكتاب الله كله، ولكى تتم دلالتها فى ميدان التفسير أتناولها فى قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ "الحجر" ٨٧" ومدلولها هنا أنها صفة لِطَائفةٍ من القرآن فقط.

وَسَأعْرِضُ هنا أهم االآراء التى طُرِحَتْ فى بيان المراد بالسبع المثانى فى آيتنا هذه التى عَرَض لها الكثير من المفسرين، وَمِمَّنْ توسع فى هذه الآراء منهم الإمام الفخر الرازى، وأهم ما جاء لديه فى ذلك: [أن قوله تعالى: ﴿**آتَيْنَاكَ سَبْعاً**﴾ يحتمل أن يكون سبعاً من الآيات، وأن يكون سبعاً من السور، وأن يكون سبعاً من الفوائد، وليس فى اللفظ ما يدل على التعيين . ثم عرض –رحمه الله – فى بيان المراد من هذه السبع أقوالاً عِدَّةً، أهمها: **القول الأول:** وهو قول أكثر المفسرين: أنه فاتحة الكتاب، وهو قول عمر وعلى وابن مسعود وأبى هريرة والحسن وأبى العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة[1]، وروى أن النبى ﷺ قرأ الفاتحة وقال: (هى السبع المثانى) رواه أبو هريرة[2]، والسبب فى وقوع هذا الاسم على الفاتحة

---

[1] ينظر: جامع البيان ٨/ ١٤/ ٧١: ٧٦ الأرقام من: ١٦١٠١: ١٦١٢٣.

[2] المذكور: جزء من حديث عن أبى سعيد بن المعلى بلفظ: (أم القرآن هى السبع المثانى) أخرجه البخارى فى كتاب: التفسير باب: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾

أنها سبع آيات، وأما السبب فى تسميتها بالمثانى فوجوه: **الأول**: أنها تثنى فى كل صلاة، بمعنى أنها تقرأ فى كل ركعة. **الثانى**: قال الزجاج: سميت مثانى، لأنها يثنى بعدها ما يقرأ معها[1]. **الثالث**: سميت آيات الفاتحة مثانى، لأنها قسمت قسمين اثنين، والدليل عليه ما روى أن النبى ﷺ قال: (يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ...) والحديث مشهور[2] **الرابع**: سميت مثانى، لأنها قسمان: ثناء ودعاء، وأيضاً النصف الأول منها حق الربوبية وهو الثناء، والنصف الثانى حق العبودية وهو الدعاء ... **الخامس**: سميت بالمثانى لأن كلماتها مثناة مثل: ﴿**الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ... إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهدِنا الصِّرَاطَ**

=فتح البارى ٨/ ٢٣٢ رقم ٤٧٠٣، والترمذى فى كتاب: تفسير القرآن باب: ومن سورة الحجر وقال: هذا حديث حسن صحيح ٥/ ١٤١: ١٤٢ رقم ٣١٢٤، وأحمد فى: المسند جـ٣ برقم ٩٣٥٦، جـ٨ رقم ٨٦٩٠، والبغوى: فى شرح السنة رقم ١١٨٢، وفى التفسير ٣/ ٦٤، وذكره ابن جرير فى مقام الدلالة على أولى الأقوال بالصواب: فى جامع البيان ٨/ ١٤/ ٧٧ برقم ١٦١٣٠، والسيوطى فى: الدر المنثور ١/ ٩ وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفاسيرهم.

[1] معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ١٨٥ طبع: دار الحديث القاهرة تحقيق: د/ عبد الجليل شلبى.

[2] المذكور جزء من حديث أخرجه: مسلم فى كتاب: الصلاة باب: وجوب قراءة الفاتحة ٢/ ٣٣٦: ٣٣٧ رقم ٣٨، وأبو داود فى: الصلاة باب: ١٣٢رقم ٨١٩ و٨٢٠ و٨٢١، والترمذى فى كتاب: تفسير القرآن باب: ومن سورة فاتحة الكتاب، وقال: هذا حديث حسن ٥/ ٤٤: ٤٥ رقم ٢٩٥٣.

﴿الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾ وفى قراءة عمر: (غير المغضوب عليهم وغير الضالين)[1]][2].

والإمام الفخر الرازى –رحمه الله – فى هذا الوجه يقصد ما يوجد من تكرير فى ألفاظ الفاتحة نَفْسَها، كتكرير ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ فى البسملة ثم فى الآية الثالثة، أو أن التكرير فى كلمة ﴿الرَّحْمنِ﴾، ثم ﴿الرَّحِيمِ﴾ باعتبار اشتراكهما فى معنى الرحمة، وإن كان بينهما فَرْقٌ نَصَّ عليه المفسرون[3]، وكذلك تكرير ﴿إِيَّاكَ﴾ مرتين، وتكرير ﴿الصِّرَاطَ﴾ مرتين، وتكرير ﴿غَيرِ﴾ مرتين حسب القراءة التى ذكرها. والخامس: سميت الفاتحة بالمثانى لاشتمالها على الثناء على الله تعالى، وهو حمد الله وتوحيده وملكه – كما هو واضح فى آياتها الأربع الأولى ..

القول الثانى: إن (السبع المثانى) هى السبع الطوال، وهذا قول ابن عمر وسعيد بن جبير فى بعض الروايات ومجاهد[4]، وهى: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة

---

[1] القراءة ذكرها البغوى فى: تفسيره ١/ ٧٧، والزمخشرى فى: الكشاف ١/ ١٢وعزاها إلى عمر وعلى، والطبرسى فى: مجمع البيان ١/ ٣٩ عن عمر، والقرطبى عن عمر وأُبَى بن كعب فى: الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٤٧، وابن عادل فى: اللباب عن عمر ١١/ ٤٨٦، وهى قراءة شاذة لمخالفتها المتواتر يراجع فى ذلك: معجم القراءات القرآنية. إعداد د/ أحمد مختار عمر، د/ عبد العال سالم كرم ١/ ١٥٨ عالم الكتب.

[2] يراجع التفسير الكبير ٩/ ٤٥١: ٤٥٥.

[3] وهو أن ﴿الرَّحْمنِ﴾ خاص برحمة الله التى تشمل جميع خَلْقِه فى الدنيا كَرِزْقه وَنِعَمِه التى يَنَال منها المؤمن والكافر، أما ﴿الرَّحِيمِ﴾، فيتعلق برحمة الله التى لا تَشْمَل إلا عباده المؤمنين فى الآخرة. ينظر فى ذلك: جامع البيان ١/ ٨٥ وما بعدها، وتفسير ابن كثير ١/ ٢٠.

[4] ينظر: جامع البيان ٨/ ١٤/ ٩٦ : ٧١ الأرقام من ١٦٠٨٧: ١٦١٠٠، ومعالم التنزيل للبغوى ٣/ ٦٥.

والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة معا، قالوا: وسميت هذه السور مثانى، لأن الفرائض والحدود والأمثال والعبر ثنيت فيها ...

القول الثالث: إن (السبع المثانى) هى السور التى هى دون الطوال والمئين وفوق ٱلْمُفَصَّل[1] واختار هذا القول قوم، واحتجوا عليه بما روى عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله أعطانى السبع الطوال مكان التوراة، وأعطانى المئين مكان الإنجيل، وأعطانى المثانى مكان الزبور، وفضلنى ربى بالمفصل)[2].

القول الرابع: إن (السبع المثانى) هى القرآن كله، وهو منقول عن ابن عباس فى بعض الروايات، وقول طاوس، قالوا: ودليل **هذا** القول قوله تعالى: ﴿**كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ**﴾ "الزمر: ٢٣" فوصف كل القرآن بكونه مثانى، **ثم اختلف القائلون بهذا القول** فى أنه ما المراد بالسبع، وما المراد بالمثانى، فذكروا فيه وجوها: **أحدها:** أن القرآن سبعة أسباع، **ثانيها:** أن القرآن مشتمل على سبعة أنواع من العلوم: التوحيد، والنبوة، والمعاد، والقضاء والقدر، وأحوال العالم، والقصص، والتكاليف. **ثالثها:** أنه مشتمل على الأمر والنهى، والخبر والاستخبار، والنداء، والقسم، والأمثال.

---

[1] الطوال هى السور السبع التى ذكرت فى القول الثانى وإن أَدْخَل البعض فيها سورة (يونس) بدلاً من (الأنفال والتوبة) والمئون: هى السور التى تزيد كل منها على مائة آية أو تقاربها، والمثانى: ما ولى المئين، والمفصل قصار السور وهى – على بعض الآراء – من سورة (ق) إلى سورة (الناس). ينظر: الإتقان. النوع الثامن عشر ١/ ٨٤، وجامع البيان ١/ ٧٠.

[2] الحديث: جيد بطرقه وشواهده، أخرجه: أحمد فى المسند ٤/ ١٠٧ وقال الأرنؤوط: إسناده حسن، والطبرانى فى: الكبير ٢٢/ ٧٦، ١٨٥و ١٨٦، والطحاوى فى: المشكل ١٣٧٩ من طرق عن عمران القطان عن قتادة عن أبى المليح بهذا الإسناد، وهذا إسناد حسن فى الشواهد، وقال الهيثمى فى المجمع: ٧/ ٤٦ رواه أحمد، وفيه عمران القطان وَثَّقَهُ ابن حِبَّان وغيره، وضَعَّفه النسائى وغيره، وباقى رجاله ثقات.

وأما وصف كل القرآن بالمثانى، فلأنه كرر فيه دلائل التوحيد والنبوة والتكاليف][1].

ومن يتأمل ذلك يجد أن أساس التنوع فى الأقوال هو– كما قال الإمام الفخر – أن آية سورة الحجر قالت: ﴿**آتيناكَ سَبعاً**﴾ دون تحديد للمراد بالسبع، وهذا ما جعل البعض يرى أنها الفاتحة لأن آياتها سبع، وما جعل آخرين يقولون: إنها السور الطوال لأنها أيضاً سبع.

أما من قال: إنها السور المسماة بالمثانى، فلا سند له من ناحية العدد، لأن هذه السور وإن لم ينضبط عددها[2] إلا أنها بالتأكيد أكثر من سبع، وسَنَدُه إنما هو من جهة التسمية فقط، أى تسمية طائفة من سُوَرِ القرآن بالمثانى، كما سميت طائفة أخرى بالسبع الطوال، وثالثة بالمئين، ورابعة بالمفصل.

وقد اختلف العلماء أنفسهم فى تعليل هذه التسمية، فقيل: إن المثانى ما ولى المئين لأنها ثنتها، أى كانت بعدها فهى لها ثوان، والمئون لها أوائل. وقيل: لتثنية الأمثال فيها بالعبر والخبر، وقيل: هى السور التى ثنيت فيها القصص[3].

أما التعليل الأول من هذه التعليلات فغير دقيق، لأن كل طائفة من السور يصح أن تكون (مثانى) بالقياس إلى السور التى تقدمتها، وأما ما يَخْتَصُّ بتثنية الأمثال والأخبار والقصص، فربما يبدو سمة بارزة فى هذه الطائفة من السور، وإن لم يقتصر عليها بالتأكيد، وإنما هو مُنْتَشِرٌ فى مُعْظَم سور القرآن الطويل منها والمتوسط والقصير.

---

[1] ينظر: التفسير الكبير ٩/ ٤٥١: ٤٥٤.

[2] وذلك لتداخلها مع نوع (المفصل) الذى لم يُتَّفَقَ على عَدَدِه أيضاً.

[3] ينظر: الإتقان ١/ ٨٤.

أما **القول الرابع**: وهو (أن السبع المثانى) هى القرآن كله، فلا يَعْدُو أن يكون تِكْرَاراً لما هو معروف من مجيئ (المثانى) صفة للقرآن كله فى قوله تعالى: ﴿..**كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَّثَانِيَ**﴾، وأصحاب هذا الرأى قد شَقُّوا على أنفسهم، فَتَكَلُّفوا تكلفاً شديداً كَىْ يُفَسروا لنا: كيف يكون القرآن سبعاً؟!، وهو ما جعلهم يقولون بهذه الأسباع التى ذكروها من الأقسام أو العلوم أو غير ذلك، وواضح أنهم ذكروها لاستيعاب مشكلة العدد.

وقد ضَعَّفَ الإمام الفخر الرازى نفسه هذا الرأى من وجه آخر، وهو أنه: [لو كان المراد بالسبع المثانى القرآن، لكان قوله: **(وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)** عطفاً للشىء على نفسه، وذلك غير جائز ...][1] أى إذا كانت السبع المثانى هى القرآن، فما الداعى لأن يعطف عليها القرآن؟

وخلاصة القول فى هذا الرأى أن المثانى قد وَرَدَت بالفعل صفة للقرآن كله، وذلك مستفاد من آية سورة (الزمر) التى سبق الحديث عنها، وليس بِمُسْتَفاد من آية سورة (الحجر) مناط الحديث هنا.

هذا عن القولين الثالث والرابع.

أما **القول الثانى**: فإنه – وإن كان له سند من اَلْعَدد – غير راجح أيضاً، لأن السور السبع الطوال ليست أَوْلَى من غيرها بصفة المثانى، وإذا كانت السور المسماة بالمثانى لا تستأثر بهذه الصفة – كما سبق أن ذَكَرْت – فمن باب أولى أَلاَّ تَسْتَأْثِر بها طائفة أخرى من السور.

وفى مناقشتى للأقوال السابقة بدأت بالأضعف لِأَفْرُغَ فى النهاية لِلْأَقْوى، وهو أن الله تعالى قال: ﴿**سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي**﴾ والفاتحة بالفعل سبع آيات.

---

[1] التفسير الكبير ٩/ ٤٥٤.

وبالرجوع إلى أقوال المفسرين وَجَدْتُ أن جُمْهُورَهم يؤيد هذا الرأى[١]، حيث نقله الإمام ابن جرير الطبرى عن عمر وعلى وابن مسعود وابن عباس ﷺ[٢]، وكذلك عن إبراهيم النخعى وعبد الله بن عبيد بن عمير وابن أبى مليكة وشهر بن حوشب والحسن البصرى ومجاهد وقتادة، وهو الرأى الذى اختاره ابن جرير أيضاً[٣].

وأهم من ذلك الأحاديث الصحيحة التى تَنُصُّ على أن الفاتحة هى السبع المثانى، ومن هذه الأحاديث كما أثبتها ابن جرير والبغوى وابن كثير وغيرهم – ما أخرجه البخارى بسنده عن أبى سعيد بن المعلى قال: قال رسول الله ﷺ: (الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته)[٤]، وما رواه الإمام أحمد بإسناده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال (عن الفاتحة): (هى أم القرآن وهى السبع المثانى وهى القرآن العظيم)[٥].

وأنتقل إلى أمر آخر، وهو: وصف الفاتحة بالمثانى، ومدى انطباق هذا الوصف أو سر إطلاقه عليها،

فأقول: فيما سبق أن نَقَلْتُه ذَكَر الإمام الفخر الرازى خمسة أوجه فى بيان هذا السر، أعتقد أَنَّ أَغْلبها لا يَتَعارضُ بَعْضه مع بَعْض، أو أنَّ السورة– بكيانها الخاص ومكانتها المتميزة – يمكن أن تَسْتَوْعَبهَ، لأنَّ سِمَةَ التكرير والترديد من أَبْرز سِمَاتها بالفعل فى الصلاة فلا تَصِحُّ صلاة بدونها، وخارج الصلاة كى نُعَلِّمَها

---

[١] ينظر فى الرأى الذى اخترته: جامع البيان ١/ ٧٠، ٨/ ١٤/ ٧٧، ومعالم التنزيل ١/ ٧٠، ٣/ ٦٤: ٦٥، وابن كثير ١/ ٨: ٩، ٣/ ٥٥٧.

[٢] يراجع: جامع البيان ٨/ ١٤/ ٧٦: ٧٧، الأرقام من (١٦١٢٤) إلى (١٦١٢٩).

[٣] يراجع: جامع البيان: ٨/ ٧١/ ٧٦ الأرقام من (١٦١٠١) إلى (١٦١٢٣).

[٤] الحديث: سبق تخريجه – ص١٩ هامش٢.

[٥] الحديث: سبق تخريجه – ص١٦ هامش٢.

أهلنا وأولادنا وكل مسلم حتى تصح صلاتهم، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما فى القاعدة الشرعية.

وسمة التكرير والترديد فى ألفاظها وتراكيبها ظاهرة أيضاً كما فى الوجه الخامس، وذلك مما يُسْهِم فى تشكيل نَغَمها وإيقاعها الخاص ٱلْمُحَبَّب إلى النفس.

وهى أيضاً قد قسمت نصفين اثنين بين الله وبين عبده، فَنِصْفُها له سبحانه ونصفها لعبده كما جاء فى الحديث، والنصف الذى لعبده كله فى الثناء على الله وتمجيده كما يظهر فى آياتها الأربع الأولى، وكل ذلك هو ما ورد فى الوجهين الثالث والرابع.

ولو قَصَرْتُ اختيارى على وَجْه واحِدٍ لاخْتَرْت الوجه الأول، لأنه يَسْتَوْعب هذه الوجوه الأخرى، بينما لا يوجد من بينها ما يستوعبه، **وبمعنى آخر أقول:** إن خصائص الفاتحة ومكانتها المتميزة هى ما جعلها تُثَنَّى وتُكَرَّر أو هى مما أكسبها صفة المثانى فكأن هذه الصفة – فى حد ذاتها – تَكْفِى للتَّذْكير بمكانة هذه السورة، وبأسباب ملازمتها للمسلم فى حياته وعبادته، **ولعل ذلك** ما جعل هذا الوجه هو ٱلْمُقَدَّم على غيره لدى كثير من المفسرين فى أثناء حديثهم عن هذه المسألة كما اتضح من قبل.

أما الوجه الثانى فإنه أَضْعَف الوجوه، لأنه لا شَىْءَ يَسْنِدُهُ من خصائص السورة نفسها، كما أنه ليس بشرط ولا بِرُكْنٍ أن تُثَنَّى الفاتحة فى الصلاة بقرآن بعدها[1].

---

[1] قراءة القرآن بعد الفاتحة فى الصلاة ليس بواجب لا فى الفرض ولا فى النافلة، ولا فى الجهر، ولا فى السر، ولا لمسبوق ولا لغيره، فعن عطاء قال: قال أبو هريرة: (فى كل صلاة قراءة ، فما أَسْمَعنا النبى ﷺ أسمعناكم، وما أَخْفَا منا أخفيناه منكم، ومن قرأ بأم الكتاب فقد أجزأت عنه ومن زاد فهو أفضل) أخرجه البخارى فى كتاب: الأذان باب: القراءة فى الفجر. فتح

اجتهاد آخر فى السبع المثانى[1]:

هـذا الاجتهـاد يَنْبُـعُ أساسـاً مـن المكانـة المعروفـة لسـورة الفاتحـة فـى الأحاديـث المشهورة التـى جعلت الإمام ابن تيمية يتحدث عن (الفاتحة) فيقول: [فهى أفضل سورة فى القرآن، قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح: لم ينزل فى التوراة ولا الإنجيل ولا الزبـور ولا القرآن مثلهـا، وهـى السـبع المثـانى والقـرآن العظـيم الـذى أوتيتـه ... وفضائلها كثيرة جداً[2] وقد جاء مأثوراً عن الحسن البصرى – رواه ابن ماجة وغيره

البارى ٢/ ٢٩٤ رقم ٧٧٢، ومسلم فى كتاب: الصلاة باب: وجوب قراءة الفاتحة ٢/ ٣٣٨ رقم ٣٩٦، وقال الإمام النووى: قوله: (ومن قرأ بأم الكتاب أَجْزَأَت عنه، ومن زاد فهو أفضل) فيه دليل الفاتحة وأنه لا يُجْزِى غيرها، وفيه استحباب السورة بعدها، وهذا مُجْمَعٌ عليه فى الصُّبْح والجمعة والأُولَيَينْ من كل الصَّلوات، وهو سُنَّةٌ عند جميع العلماء، وحكى القاضى عياض – رحمه الله تعالى – عن بعض أصحاب مالك وجوب السورة وهو شاذ مردود. صحيح مسلم بشرح النووى ٢/ ٣٤٢ حقَّقَه وخَرَّجَه وفَهْرَسَهُ: عصام الصبابطى وغيره طبع: دار الحديث القاهرة، وينظر أيضاً: فتح البارى ٢/ ٢٩٥ طبع: دار الريان للتراث، ونيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار ٢/ ٢٢٦: ٢٢٧ طبع: مكتبة دار التراث القاهرة.

[1] بعد البحث اطمأننت إلى أن السبع المثانى هى (الفاتحة) وَرَضِيتُ به بعد مناقشة الآراء التى طرحت فى سر تسميتها بالمثانى، وَرَجَّحْت منها هذا الرأى الذى سبق الحديث عنه، لكن يوجد اجتهاد آخر فى سر هذه التسمية، أرى أَنَّ له أهميةً فى موضوع هذا المطلب، =وهو اجتهاد لا يُصَادِمُ نصاً مأثوراً، ولا يُصَادم اللغة أيضاً، بل إِّن رُوحَ النصوص المأثورة تؤيده، وأيضاً ما ورد عن المثانى فى اللغة يؤيده.

[2] موضوع (أفضل القرآن وفضائله) من مباحث الإتقان للسيوطى، وقد ناقش –رحمه الله – فى بدايته السؤال القائل: هل فى القرآن شىء أفضل من شىء؟ ومضمون ما ذكره فى ذلك من أقوال العلماء: أن التفاضل فى سور القرآن وآياته لا يعنى أن بعضها أقل شأناً من بعض فى بيانه أو إعجازه، وإنما يقع هذا التفاضل تبعاً لمضمون بعض السور والآيات ومدى خطره فى

– أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب، جَمَع عِلْمَها فى الأربعة، وجَمَع عِلْمَ الأربعة فى القرآن، وجمع علم القرآن فى المُفَصَّل، وجمع علم الْمُفَصَّل فى أم القرآن، وجمع عِلْمَ أُم القرآن فى هاتين الكلمتين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وإن علم الكتب المنزلة من السماء اجتمع فى هاتين الكلمتين الجامعتين][1].

ولأن علم القرآن كله يرجع إلى سورة الفاتحة، أَوْ قَدْ أُودِع فيها، ففى مثل هذه الأحاديث والأقوال أركز على وصف هذه السورة بأنها أم القرآن، كما هو معنى كلام ابن تيمية، وهو الذى وَضَّحَه ابن كثير أيضاً فى قوله عن سر تسمية الفاتحة بأم الكتاب: [قيل: إنما سميت بذلك لرجوع معانى القرآن كله إلى ما تضمنته. قال ابن جرير: والعرب تسمى كل جامع أمراً أو مُقَدِّمٍ لأمر، إذا كان له توابع تتبعه هُوَ لها إمام جامع: أُمَّاً، فتقول للجلدة التى تجمع الدماغ: أُمُّ الرَّأْس، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التى يجتمعون تحتها أما[2]][3].

وقد بذل المفسرون جهوداً عظيمة عن كيف أن (الفاتحة) هى (أم الكتاب) على جهة التفصيل، وكيف أن معانى القرآن كله ترجع إلى ما تضمنته، ومن هؤلاء

تبليغ الرسالة وتوطيد أركانها، كأن تشتمل على دلائل التوحيد أو على أعظم أسماء الله الحسنى أو على أهم التوجيهات المؤثرة فى حياة المسلم ... ونحو ذلك – وقال –رحمه الله– فى نفس المبحث: (ولا تنافى أيضاً بين كون (الفاتحة) أعظم السور وبين الحديث الآخر أن (البقرة) أعظم السور، لأن المراد به ما عدا (الفاتحة) من السور التى فصلت فيها الأحكام وضربت الأمثال وأقيمت ٱلحُجَج إذ لم تشتمل سورة على ما اشتملت عليه أى أن: (الفاتحة) أعظم سورة فى القرآن من حيث إنها أصله وأساسه، أما (البقرة) فهى أعظم سورة بين السور التى فصلت ما جاء فى (الفاتحة). ينظر: الإتقان ٢/ ١٩٩ وما بعدها.

[1] مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٦: ٧ طبع: المكتب التعليمى السعودى.

[2] يراجع: جامع البيان فى: القول فى تأويل أسماء فاتحة الكتاب ١/ ٧٣.

[3] تفسير ابن كثير ١/ ٨: ٩.

الإمام ابن القيم[1]، ومما قاله –رحمه الله – [اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أَتَمَّ اشتمال، وتَضَمَّنَتْها أَكْمَلَ تَضَمُن فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهى: (الله والرب والرحمن)، وَبنِيَتِ السورة على الإلهية والربوبية والرحمة، فـ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ مبنى على الإلهية، و ﴿**إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة: فهو المحمود فى إِلَهِيَّته، وربوبيته، ورحمته، والثناء والمجد كَمَالَانِ لجده، وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيئها، وتَفَرُّد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل، وكل هذا تحت قوله: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾][2].

وَيَمْضى –رحمه الله – على هذه الشاكلة فى بيان مقاصد السورة، ثم يُفَصِّلها تفصيلاً دقيقاً ناصعاً يستمد دقَّتَهُ ونصاعته من مختلف الآيات القرآنية التى لا يفتأ يَعْرِض عليها مقاصد سورة الفاتحة، أو يَعْرِضُها على هذه المقاصد ليوضح كلاً منهما بالآخر.

---

[1] هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب، صاحب ٱلْمُصَنَّفات الكثيرة، مدارج السالكين، وأعلام الموقعين عن رب العالمين، وزاد المعاد فى هدى خير العباد، توفى –رحمه الله – سنة ٧٥١هـ. ينظر ترجمته فى: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى ٤/ ٢١: ٢٢ نشر: دار الكتب الحديثة القاهرة، وطبقات المفسرين لشمس الدين الداودى ت ٩٤٥هـ. ٢/ ٩٥: ٩٧ نشر: دار الكتب العلمية بيروت.

[2] التفسير القيم ص٧ جمع: محمد أويس الندوى تحقيق: محمد حامد الفقى طبع: دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨هـ– ١٩٩٨م.

فالفاتحة إذاً بمثابة المقدمة للكتاب كله، والمقدمة تُمَهِّد دائماً لما يأتى بعدها وتشير إليه وتُجْمِل مقاصده، فالذى أُجْمِل وَرُكِّز فى هذه الفاتحة هو ما يُثَنَّى ويردد فى الكتاب كله، وهذا ما أريد الوصول إليه، فلا مانع إذا من القول بأن وصف الفاتحة بالمثانى يعنى أيضاً تَضَمُّنَها الإجمالى لكافة الأغراض والمعانى التى تُفَصَّل وتُرَدَّد بعد ذلك فى سائر القرآن، ولعل هذا ما يُيَسِّرُ فهم سبب قول رسول الله ﷺ عن الفاتحة فى الأحاديث التى سبق ذكرها إنها (وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) ذلك لأنها أصله وأساسه[1].

أضف إلى ذلك أن آية سورة الحجر: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾، والتى اختلف المفسرون فيها حول عطف (الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) على (سَبْعاً) هل هو من قبيل عطف الكل على الجزء أو العام على الخاص أم أن العطف هنا لا يعنى المغايرة؟ أى يمكن أن يكون المعنى: ولقد مّنَنَّا عليك يا محمد بإعطائك هذه السورة العظيمة وهى سورة الفاتحة، بإعطائك القرآن العظيم أيضاً، ويكون ذكر الفاتحة مستقلة عن سائر القرآن على سبيل التخصيص لشرفها وعلو قدرها، كما يقول القائل: جاء عُمَر والصحابة مع أنه واحد منهم لكنَّه أُفْرِد لمكانته الخاصة، أو يكون المعنى: ولقد مننا عليك يامحمد بإعطائك سورة عظيمة هى القرآن ذاته لِتَضَمُّنِها جميع أصوله وأهدافه، **لكن البعض اعترض على هذا الوجه الثانى** بأن

[1] الأساس من أسماء سورة (الفاتحة) التى ذكرها السيوطى، وقد أحصى لها نيفاً وعشرين اسْماً، وقال: (إن ذلك يدل على شرفها، فإن كثرة الأسماء دالة على شرف المسمى). ينظر: الإتقان: النوع السابع عشر ١/ ٧٠.

الأصل فى اللغة أن العطف يقتضى المغايرة، فلابُدَّ أن يكون المقصود بالقرآن العظيم فى الآية غير المقصود بالسبع المثانى[١].

إلا أن بعض المفسرين نَصَر هذا الوجه الثانى، ومنهم الإمام: الألوسى الذى احتج له بالحديث الذى نص على أن الفاتحة هى السبع المثانى والقرآن العظيم، واحتج له أيضاً باللغة التى لم يُعْدم فيها ما يدل على جواز الفصل بين صفات الشىء الواحد بحرف العطف، كما فى قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام[٢]

وأضاف الإمام الألوسى قائلاً: [إن كونهما – أى السبع المثانى والقرآن – الفاتحة أَوْفَق لمقتضى المقام لِمَا مَرَّ فى تخصيص ﴿**الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ**﴾ بالسورة[٣]، وأشد طباقا للواقع فلم يكن إذ ذاك قد أوتى ﷺ القرآن كله أ.هـ][٤].

فالإمام الألوسى يقول بالتخصيص فى آية سورة الحجر قياساً على التخصيص فى أول آية منها، وهى قوله تعالى: ﴿**الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ**﴾، وَقَصْدُه أن الله جل شأنه حين قال ذلك فى أول السورة لا يَعْنى بقوله: (تِلْكَ) الكتاب كله أو

---

[١] على الناظر لهذا الاعتراض أن يميز بين هذا الاعتراض، وقول الفخر الرازى سابقاً: [لو كان المراد بالسبع المثانى القرآن لكان قوله: ﴿**وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾، عطفاً للشىء على نفسه] لأن ٱلعَلَّامة الفخر قال ذلك اعتراضاً على القائلين بأن السبع المثانى هى القرآن ذاته، وليس اعتراضاً على القائلين بأنها الفاتحة ... فليراجع كلامه حتى لا يكون خلط بين الأمرين.

[٢] عجزه: وليت الكتيبة فى المزدحم. وهو: من المتقارب بلا نسبة فى: الإنصاف فى مسائل الخلاف ٢/ ٤٦٩، وخزانة الأدب ١/ ٤٥١، ٥/ ١٠٧، ٦/ ٩١، وشرح قطر الندى: ص٣٩٦.

[٣] يراجع: ما نقله عن صاحب الكشف قبل ذلك ٨/ ١٤/ ٤: ٥، ورأيه أيضاً بعد ذلك ص١١٦.

[٤] روح المعانى ٨/ ١٤/ ١١٧: ١١٨.

القرآن كله، بل يَعْنى سورة (الحجر) خصوصاً، أى: آيات هذه السورة التى تُتْلَى عليك هى آيات كتابه وقرآنه المنزل عليك، أو: تلك السورة آيات من كتاب الله وقرآنه المنزل عليك، فكذلك الأمر فى آية السبع المثانى ليس القصد فيها أن الله آتى رسوله ﷺ الكتاب كله، بل الفاتحة التى هى الكتاب.

وقال –رحمه الله – بأن هذا الفهم أشد طباقاً للواقع، لأنه ﷺ لم يكن حين نزول سورة الحجر قد أُوتِيَ القرآن كُله، وإنما أُوتى بَعْضه فقط، حيث كان ينزل نُجُوماً – كما هو معروف – وليس جملة واحدة.

المطلب الثالث: المثانى جهود تراثية:

من المعلوم أن مُصْطَلح علوم القرآن يتعلق بكل ما يتعلق أو يتصل بدراسة كتاب الله وفَهْمه من أى جانب من جوانبه، وفى ذلك صُنِّفت كتب كثيرة، من أشهرها: (البرهان فى علوم القرآن) لبدر الدين الزركشى (ت ٧٩٤هـ) و(الإتقان فى علوم القرآن) لجلال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ).

وفى هذين الكتابين، وغيرهما توجد عشرات المباحث فى كل ما يعين على دراسة كتاب الله تعالى وتفسيره، مما يتعلق بكيفيات نزوله وأسبابه وأزمنته ومكيّه ومدنيَّه وغريبه ووجوه إعجازه وأصول تفسيره، وغير ذلك كثير.

أما هذا المبحث الذى أسميه بالمثانى القرآنية، فإن أقرب مبحث إليه هو ما يُسَمَّى فى هذين الكتابين وأمثالهما بعلم المتشابه[1] أو الآيات المشتبهات[2] أى ما يتشابه أو يتماثل أو يتكرر من ألفاظ القرآن وآياته، ولعله من المعلوم أيضاً أن هذا (المتشابه) ليس هو (المتشابه) الذى يقابل ٱلمُحْكَم فى قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ "آل عمران: ٧"

---

[1] هذا هو النوع الخامس فى كتاب: (البرهان) للزركشى.

[2] هذا هو النوع الثالث والستون فى: (الإتقان) للسيوطى.

فإن المتشابه فى هذه الآية يقصد به الملتبس[١] الذى لا يَتَّضِح مدلوله من آيات القرآن، مقابل المحكم أى القاطع الواضح فى دلالته من هذه الآيات، وذلك علم آخر من علوم القرآن هو (المحكم والمتشابه)[٢].

وقد نال هذا المبحث – الذى عُنِىَ به – من أسلافنا عناية كبيرة تدل على جهودهم العظيمة التى بذلوا فيها أقصى ما فى وسعهم من الدرس والتَّفَقُّه فى كتاب الله وتَتَبعُّ كل ما يعين على تفسيره والدفاع عنه وإظهار إعجازه، وقد كان من دواعى اهتمامهم بهذا العلم ما رَأَوْه من تَعَلُّق بعض ٱلْمُتَشَكِّكِين والمُلْحِدين بموضوعه، لِيَطعَنُوا من خلاله فى القرآن، مُدَّعين أن ما به من المتشابه اللفظى غير مفهوم أو تكرار لا هدف له.

لهذا فإن القاضى عبد الجبار بن أحمد – وهو من أئمة المعتزلة (ت ٤١٥هـ) لم ينس مناقشة هذا الطعن ضِمْنَ ما ناقشه وَرَدَّ عليه فى كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن،[٣] ولم يَنْسَه أيضاً الإمام المعتزلى الآخر الشريف المرتضى (ت ٣٤٦هـ) فى كتابه (درر الفوائد وغرر القلائد) المعروف بأمالى المرتضى[٤]، وليس ذلك فحسب، بل إنه ظهرت كتب ومصنفات مستقلة مُخَصَّصَة لهذا الموضوع، أَعْطَى عنها السيوطى فِكْرة خلال حديثه عن النوع الثالث والستين فى كتابه[٥] حيث قال: [أفرده بالتصنيف خلق، أولهم فيما أحسب الكسائى، ونظمه السخاوى،

---

[١] كما يقال: اشتبه الأمر أو تشابه علَىَّ .. أى: الْتَبَسَ.

[٢] ينظر على سبيل المثال: النوع الثالث والأربعين من (الإتقان).

[٣] ينظر: ص١٥٤ من هذا الكتاب، طبع: دار النهضة الحديثة، بيروت.

[٤] ينظر: ١/ ١٢٠ وما بعدها من هذا الكتاب تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم طبع: الحلبى ١٩٥٤.

[٥] وهو عن (الآيات المشتبهات) كما أشرت من قبل.

وألف فى توجيهه الكرمانى كتابه (البرهان فى متشابه القرآن) وأَحْسَن منه (درة التنزيل وغرة التأويل) لأبى عبد الله الرازى، وأَحْسَن من هذا (ملاك التأويل) لأبى جعفر بن الزبير ولم أقف عليه، وللقاضى بدر الدين بن جماعة فى ذلك كتاب لطيف سماه (كشف المعانى عن متشابه المثانى) وفى كتابى (أسرار التنزيل) المسمى (قطف الأزهار فى كشف الأسرار) من ذلك الجم الغفير][1].

هذا والمشهور المتداول بين يَدَىَّ من هذه المصنفات ثلاثة:

أولها: كتاب: (درة التنزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز) لأبى عبد الله محمد بن عبد الله، المعروف بالخطيب الإسكافى المتوفَّى ٤٢٠هـ[2] وهو أقدم كتاب فى موضوعه بين يدى اليوم، وقد اعترف له بالفضل والسبق الذين طرقوا هذا الموضوع من بعده، ومنهم الكرمانى وابن الزبير اللذان سأعرف بكتابيهما فيما بعد.

وقد بَيَّنَ الخطيب الهدف من كتابه حيث ذكر فى مقدمته أن الله تعالى بعد أن خَصَّهَ بإكرامه وعنايته وشَرَّفَه بإقراء كلامه ودرايته دَعَتْه (دواع قوية) يبعثها نظر وروية، فى الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة، وحروفها المتشابهة المتعلقة والمنحرفة، تَطَلُّباً لِعَلَامات تَرْفَع لبس إشكالها، وتخص الكلمة بآياتها دون إشكالها[3].

---

[1] الإتقان ٢/ ١٤٦.

[2] هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب عالم باللغة والأدب من أهل أصبهان توفى سنة ٤٢٠هـ ينظر: الوافى لصلاح الدين بن خليل بن أيبك الصفدى ٣/ ٣٣٧ طبع: بيروت، وإرشاد الأريب ٧/ ٢٠.

[3] ص ٧: ٨ من الكتاب، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

وقد لحظ أحد الباحثين[1] أن صاحب (كشف الظنون) وصاحب (هداية العارفين) قد نَسَبَا خَطَأً كتاب الإسكافى هذا إلى ٱلْمُفَسِّر المعروف فخر الدين الرازى صاحب التفسير الكبير، وصَحَّحَ هو ذلك مشيراً إلى أن الإتفاق بين الفخر والإسكافى فى الكُنْية والمَوْطن رُبَّمَا كان من أسباب هذا الخطأ، فكلاهما يُكَنَّى بأبى عبد الله، وكلاهما أيضاً رازى نسبة إلى منطقة الرى.

لكن هناك لَبْساً من جهة أخرى، وهو عن أبى عبد الله الرازى الذى ذكره السيوطى – فيما نقلته عنه سابقاً – وذكر له كتاباً بنفس عنوان كتاب الإسكافى الذى أَتَحَدَّثُ عنه، فَهَلْ يَقْصِد السيوطى بهذا الاسم الخطيب نفسه باعتبار ما مَرَّ عن الكنية والموطن أَمْ أَنَّه بالفعل شَخْص آخر غير الخطيب وله كتابٌ بنفس العنوان؟

الحق أن الذى ظهر لى حتى الآن هو أن أبا عبد الله الرازى هذا شخص آخر غير الخطيب، وله كتاب فى المتشابه اللفظى أيضاً بنفس عنوان كتاب الخطيب، **وذلك لسببين:**

الأول: يتبين من حديث السيوطى عن أحد أمثلة الآيات المشتبهات المتعلقة بقوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً**﴾ "البقرة: ٨٠"، وقوله تعالى: ﴿**أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ**﴾ "آل عمران: ٢٤" حيث ذكر فى ذلك رَأْياً لابن جماعة، ثم قال: [وقال أبو عبد الله الرازى: إنه – أى: التشابه أو الاختلاف بين (مَّعْدُودَةً) و (مَّعْدُودَاتٍ) من باب التَّفَنُّن الأُسْلُوبى فقط دونما سبب موضوعى – من باب التفنن][2].

---

[1] هو الأستاذ سعيد الفلاح فى مقدمة تحقيقه لملاك التأويل ١/ ١٠٦ طبع: دار الغرب الإسلامى بيروت ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

[2] ينظر: الإتقان ٢/ ١٤٧، ومعترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى ١/ ٨٥ تحقيق: على محمد البجاوى طبع: دار الفكر العربى.

ولما رَجَعْتُ إلى كتاب الخطيب الإسكافى فى هذه المسألة لَمْ أَجِدْ لهذا الرأى أثراً، وإنما له فيها جواب آخر[١].

الثانى: يَتَبَيَّن من حديث الأستاذ عبد القادر عطا محقق كتاب (البرهان فى متشابه القرآن) للكرمانى، حيث قال فى مقدمة تحقيقه: (ولا نعلم إلى الآن كتاباً مطبوعاً عالج هذا الباب من الدراسة القرآنية مُسْتَقْصِياً ومُسْتَقِلاً إلاَّ كتاب الإسكافى (درة التنزيل وغُرَّة التأويل) وقد أطال القول فيه وغمض مقصده، وأغفل كثيراً من مواضع التَّكْرَار[٢]، وإلا (دُرَّة التنزيل) للرازى وهو مطبوع بمصر مختصراً غير واف بالغرض)[٣].

وهذا كلام واضح يدل على أن هناك كتابَيْن مُخْتَلفين لشخصين أيضاً، وإن حملا عنوانا واحدا[٤].

ثانيها: كتاب: (البرهان فى توجيه متشابه القرآن) لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى المتوفى تقريباً سنة ٥٠٥هـ، وقد عَرَّفَنَا الكرمانى بغرضه من كتابه

---

[١] ينظر: درة التنزيل ص٢٢.

[٢] مع أن الأستاذ عبد القادر عطا من ٱلمُحَقِّقين الأُمَنَاء الجادِّين إلا أَنَّه هنا قد قَسَا على كتاب: الخطيب التى تَشْهَد مادته – لمن اطلع عليها – بغير ذلك، ويَشْهد له العلماء أيضاً كما ذكرت.

[٣] ص١٤ من مقدمة تحقيقه للبرهان، طبع: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

[٤] أُنَبِهِ إلى أن الأستاذ سعيد الفلاح قد أثار لَبْساً من نوع آخر حين نقل كلام السيوطى فى مقدمة تحقيقه ص١٠٦ – على هذا النحو: (ويقول السيوطى فى الإتقان: إن أولهم فيما أحسب الكسائى، وصنف فى توجيهه أبو عبد الله الرازى المعروف بالخطيب الإسكافى فهذا يُوهِمُ أَنَّ السيوطى هو صاحب القول بأن الرازى هو الخطيب، بينما لم يرد ذلك فى كلام السيوطى مطلقاً، فالظاهر أن الباحث قد خلط فى عبارته بين ما يعتقده هو فى المسألة وبين كلام السيوطى.

هذا فقال: (فإن هذا كتاب أَذْكُر فيه الآيات المتشابهات التى تكررت فى القرآن وألفاظها متفقة، ولكن وقع فى بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف، أو غير ذلك مما يوجب اختلافاً بين الآيتين أو الآيات التى تكررت من غير زيادة ولا نقصان، وَأُبَيِّنُ ما السبب فى تكرارها، والفائدة فى إعادتها، وما الموجب للزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير والإبدال، وما الحكمة فى تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرى، وهل كان يصلح ما فى هذه السورة مكان ما فى السورة التى تشاكلها أم لا، ليجرى ذلك مجرى علامات تزيل إشكالها، وتمتاز بها عن أشكالها ...)[1] ثم أشار فى نهاية مقدمته إلى جُهْد الخطيب الإسكافى فى الموضوع، وأنه سوف يحكى كلامه فيه إذا بلغ إليه ...، وإن كان يَتَّضحُ من كلامه أنه لم يَطَّلع على كتاب الخطيب، وأَنَّ نَقْلَه عنه إنما هو من تفسير أبى مسلم الأصفهانى أحد غلاة المعتزلة المتوفى سنة ٤٥٩هـ[2].

ثالثها: كتاب أبى جعفر بن الزبير [3]، الذى سماه: (ملاك التأويل القاطع بذوى الإلحاد والتعطيل فى توجيه المتشابه اللفظى من آى التنزيل)، وهذا الكتاب يعد

---

[1] البرهان فى توجيه متشابه القرآن ص١٩: ٢٠.

[2] السابق ٢٠: ٢١.

[3] هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين بن الزبير بن عاصم بن مسلم بن كعب بن مالك بن علقمة بن حبان بن مسلم بن علم بن مرة بن عوف الثقفى العاصمى الجيانى، وكنيته أبو جعفر، ولد فى مدينة جيان فى ذى القعدة عام سبع وعشرين وستمائة، تفوق رحمه الله فى كثير من العلوم منها: التفسير، والحديث، والقراءات، والنحو، والتاريخ، له مؤلفات عدة منها: ملاك التأويل، والبرهان فى ترتيب سور القرآن، تعليق على كتاب: سيبويه، كتاب: الزمان والمكان، وغير ذلك كثير، توفى بغرناطة فى ربيع الأول سنة ثمان وسبعمائة للهجرة النبوية عن ثمانين عاما. ينظر فى ترجمته: الدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٨٤ حيدر آباد الهند، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ١/ ١٦ القدسى القاهرة، معجم

أضخم المصنفات فى موضوعه، وأكثرها توسعاً واستقصاءاً، وقد بَيَّن صاحبه غرضه منه فى مقدمته بعبارات لا تختلف فى مضمونها عما سبق لدى الكرمانى والإسكافى، لكن الواضح أنه أكثر تحَمُّساً فى إقباله على موضوعه، وأكثر إدراكاً لخطره، وذلك ما يبدوا من عنوان كتابه، ومن قوله أيضاً فى مقدمته: إن موضوعه لم يَقْرَعْه أحد قبله (مع عظيم موقعه، وجليل مَنْزَعه، ومكانته فى الدِّين، وفتِّه أعضاد ذوى الشك والارتياب من الطاعنين الملحدين ...)[1] ثم أشار إلى كتاب الإسكافى وفضله، وإلى ما سوف يضيفه قائلاً: [... إلى أن وردَ علىَّ كتاب لبعض الْمُعْتَنين من جِلَّة المشارقة – نفعه الله – سمَّاه بكتاب: **(دُرَّة التنزيل وغُرَّةُ التَّأويل)**، قرع به مغلق هذا الباب، وأتى فى هذا المقصد بِصَفْوٍ من

التوجيهات لُباب ... وأحسن فيما سلك وسَنْ، وَحُقَّ لنا به – لإحسانِه – أن نَقْتَدِى ونستَنْ مُعْتمِداً عين ما ذَكَره من الآيات وَمُسْتَدركاً ماَ تَذَكَّرْتُه مما أغفله – رحمه الله – من أمثالها من المتشابهات][2].

وكان ابن الزبير يتتَّبع بالفعل نفس المسائل والنصوص التى تطرق إليها الإسكافى، ناقلاً عنه أحياناً، ومضيفاً إليه من تأملاته واجتهاداته أحياناً أخرى[3] ثم

المؤلفين عمر رضا مجالة ١/ ١٣٨ المكتبة العربية بدمشق سوريا ١٩٥٧، الوافى بالوفيات للصفدى ٦/ ٢٢٢ طبع بيروت، شجرة النور الزكية لمحمد بن محمد مخلوف ٢١٢ السلفية القاهرة ١٣٤٩.

[1] ينظر: ملاك التأويل ١/ ١٤٥ بتحقيق: سعيد الفلاح، ١/ ٤ بتحقيق: د. محمود كامل أحمد طبع : دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت لبنان ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

[2] ملاك التأويل ١/ ٥٠٤ دار النهضة، ١/ ١٤٦: ١٤٧ دار الغرب.

[3] هناك أمثلة كثيرة على ذلك، من أوضحها تناول الخطيب الإسكافى للآيات ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠ من سورة البقرة وما فيها من التوجيه المتكرر بشأن تغيير القبلة ص٣٦ من كتابه حيث

إنه طَرَق أيضاً مسائل ونصوصاً أخرى لم يَطْرقها الإسكافى أصلاً، ويُصَدِّر كلا منها بعلامة (غ) رمزاً إلى (المُغْفل) الذى لم يتعرض له الإسكافى.

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره من الكتب أقول: إن الإمام الزركشى (ت ٧٩٤هـ) فى كتابه (البرهان) قد بذل أيضاً جُهْداً طيباً فى هذا الموضوع[١] رغم أن هذا الكتاب مخصص لعلوم القرآن ومباحثه عموماً، وليس لواحد منها على وجه الخصوص، وأن الإمام السيوطى قد عنى بهذا الموضوع أيضاً فى (الإتقان)[٢] وكتب عنه أيضاً فى كتابه (معترك الأقران فى إعجاز القرآن) تحت عنوان: (الوجه السادس من وجوه إعجازه مشتبهات آياته)[٣].

المطلب الرابع: المثانى ضوابط اصطلاحية:

فيما سبق تأكدت الصلة الوثيقة بين مدلول المثانى ومدلول التكرير أو الترديد، وقال جمهور المفسرين: إن القرآن مثان أى: تثنى أو تكرر فيه القصص والمواعظ والأخبار والتوجيهات، وعلى هذا فالتوصل إلى مفهوم محدد للمثانى مرتبط إذا بالتوصل إلى مفهوم محدد للتكرار.

والذى تبين لى أن المفهوم السائد للتكرار لا يزال مفهوما مضطرباً غامضاً، الأمر الذى يعوق القدرة على اكتشاف وظائفه الحقيقية التى يمكن أن يؤديها فى ميدان النص القرآنى الذى يبدو فيه ظاهرة واضحة.

تناولها ابن الزبير ١/ ٢٤٠ فأفاد من الإسكافى ثم توسع هو وأضاف إضافات طيبة فى أسرار هذه الآيات التى تعد من أبرز أمثلة المتشابه اللفظى فى القرآن.

[١] وذلك فى النوع الخامس الذى أشرت إليه فى بداية هذا المطلب.

[٢] فى النوع الثالث والستين الذى أشرت إليه أيضاً.

[٣] ينظر: ١/ ٨٥ وما بعدها من هذا الكتاب.

إن الغالب على هذا المفهوم السائد أن التَّكْرَار يتعلق بترديد المعنى بالألفاظ أو الصيغ المتفقة فقط دون الألفاظ ،أوالصيغ المختلفة بنوع أو آخر من أنواع الاختلاف التى يرد التَّكْرَار فيها تابعاً للإطناب – ضمن مباحث علم المعانى – مع بيان أغراضه المشهورة، كالتحذير والإغراء والمبالغة والقسم التَّحسُّر والفخر وزيادة الترغيب والتأكيد، وما شابه ذلك[1].

والذى أراه أن هذا المفهوم يُضَيِّق جداً من نطاق التَّكْرَار، ويؤدى إلى تَنْحِية كثير من الأساليب التى يمكن أن تدخل فى هذا النطاق، وهى التى يتم فيها تكرار المعنى مع اختلاف اللفظ أو تنوع العبارة.

صحيح أن اختلاف الألفاظ فى مثل هذه الأساليب يؤدى – مهما كان يسيرا – إلى اختلاف المعانى، لكن هذا الاختلاف لا يَنْقُصُ السمة الأصلية فى هذه الأساليب، وهى التَّكْرَار، لأنه يضيف أو يستكمل بعض زواياها أو يُثْرى وظائفها، ونحو ذلك.

إن هذا التَّكْرَار المتنوع –حسبما أرى– ظاهرة حقيقية على مستوى الطبيعة كلها وليس فقط على مستوى البيان الإنسانى، فَمَن تأمَّل ظاهرة التشابه فى شتَّى جوانب هذه الطبيعة يتضح له أن هذه الظاهرة إنما تقوم على تكرار صفة أو أكثر فى الصورتين المتشابهتين، وكلما كثر تكرار الصفات فيهما زاد التقارب أو التشابه بينهما، حتى يمكن أن يصل إلى حد التماثل أو التطابق، فهو إذاً تشابهٌ أو تكرار

---

[1] يراجع فى هذه الأغراض وغيرها: البلاغة الواضحة لعلى الجارم ومصطفى أمين ص٢٤٩ وما بعدها طبع: دار المعارف ١٣٨٩هـ، والتكرير بين المثير والتأثير للدكتور عز الدين السيد ص٨٨ وما بعدها طبع: دار الطباعة المحمدية.

متنَوِّع ذو درجات متفاوتة[1] أدت إلى التشابه ولم تؤد إلى التطابق، فهما متشابهتان مختلفتان فى الوقت نفسه، متشابهتان بمقدار ما تكرر فيهما من الصفات، ومختلفتان بمقدار ما نقص من هذا التَّكْرَار.

وهذا التَّكْرَار المتنوع الذى يصل إلى الحد الذى يمتزج فيه الاتفاق مع الاختلاف هو أصل معروف من أصول بناء هذا الكون الذى نعيش فيه، وأيضاً سر من أسرار تفاعله وتجدده وحركته الدائبة، فلو كان كله متماثلاً لانتهى إلى الرتابة والملل والجمود، ولو كان مختلفاً لانتهى إلى الفوضى والتمزق، لكنه يمتزج دائماً فيكون التآلف والتفاعل والتجدد.

وبالنقل لهذه الصورة إلى ميدان البيان يتضح بجلاء الفرق بين هذا المفهوم للتكرار وبين مفهومه السابق الذى يحصره فى نطاق الألفاظ، فهو وفق هذا المفهوم – أى السابق – له وظائفه البيانية الهامة بلا شك، لكنه لا يعدو أن يكون لونا واحداً من ألوان هذا التَّكْرَار حسب مفهومه الشامل.

إن هذا المفهوم الأعمق للتكرار لا يتجلى من الناحية المادية الحسية كما يتجلى فى خَلْقْ الله وصَنْعَته، ولا يتجلَّى من الناحية الفنية البيانية كما يتجلى فى كتاب الله وكلامه، وَمِنْ ثمَّ فإن القرآن الكريم هو وحده القادر على تجلية هذا المفهوم وتجسيده وتقديم أعظم ثماره فى ميدان البيان، وهو ما أطمح فى إيضاحه – بعون الله وتوفيقه – خلال هذا البحث، أو تقريبه على الأقل من ذَوِق القارئ المتدبرِّ لكتاب الله الكريم.

---

[1] ومثال ذلك: أن يرى الإنسان صورتين لشخصين من بُعدٍ فيظُن أنهما لشخص واحد، لكن حين يقترب منهما ويتفحصهما يتبين له أنهما متمايزتان وإن كانتا متشابهتين، لقد حدث بينهما تكرار فى الصفات بدرجة معينة أدت إلى التشابه فقط لا إلى التطابق التام.

وأرى أن القول هذا من جانب بعض المدافعين عن القرآن –دون تَنَبُّه لهذا المفهوم – للحساسية الشديدة تجاه ظاهرة التَّكْرَار التى تلجئهم إلى البعد عن إثباتها أو حصرها فى أَضْيق نطاق، خَشْية أن يُتَّهَم القرآن بالإطناب ألْمُمِل أو بالترديد الذى لا فائدة من ورائه ولا جديد فيه أيضاً[1].

أقول: بأن هذا يؤدى إلى الوقوع فى خطأ آخر، وهو إنكار خاصية من خواص القرآن الثابتة بنصه، والثابتة أيضاً من واقع أساليبه، حتى لو اختلف البعض على مدلول كلمة (المثانى) فهذه مثلاً حقيقة الإمهال أو (الأجل المسمى) الذى قدره الله قبل محاسبة خلقه، تَتَرَدَّدُ فى قوله تعالى ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**﴾ "هود: ٣" وفى قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ "إبراهيم: ١٠" وفى قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى**﴾ "طه: ١٢٩"، وفى قوله تعالى:

---

[1] دَرَج البلاغيون على جَعْل التكرار نَوْعاً من الإطناب، ولما كان العرب محبين للإيجاز، فقد خشى كثيرون أن يعاب القرآن به، فرفضوه، قال بهاء الدين أحمد بن على السبكى مفرقاً بين التكرار والإطناب: (ليس بإطناب، بل هى ألفاظ، كلٌ أريد به غير ما أريد =بالآخر) عروس الأفراح ٣/ ٢١٩ مطبعة: بولاق مصر ١٣١٨هـ، وينظر: معترك الأقران ١/ ٣٤٤، وقال أبو زهره: (بجوار طول السورة وقصرها – مع الإعجاز فى كلها – قد نجد فى القرآن تكراراً، وهو من تصريف البيان، لا من الإطناب المجرد، وإنما هو لمقاصد، ولتوجيه النظر، ومناسبة المقام) المعجزة الكبرى ص١٦٠ دار الفكر العربى مصر ١٩٧٧، ولم يقنع د/ عبد المنعم السيد حسن بالتفرقة بينهما، بل تعرض لما بينهما من صلة، فقال: (التكرار إعادة الشىء مرارا، والإطناب تأدية المعنى المراد بلفظ أَزْيَدَ مما يستحقه لفائدة، وذكر أن كلمة (الفائدة) هى التى تفرق بين الإطناب والتطويل ...) ظاهرة التكرار فى القرآن الكريم ص١١٤ دار المطبوعات مصر ط ١٤٠٠/ ١٩٨٠.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ "العنكبوت: ٥٣".

وهذه هى عادة الاتباع الأعمى للآباء تَتَرَدَّد فى القرآن وَتُذَمُّ فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ "البقرة: ١٧٠"، وفى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ "المائدة: ١٠٤"، وفى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ "الأعراف: ٢٨"، وفى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ "الزخرف: ٢٣".

فهذا الترديد الواضح فيما ذُكِر ونحوه مما سَيُذْكر لا يمكن لأحد إنكاره مع أن أصل المعنى واحد وسمة التكرير أو الترديد لا تُنْكَر[1]، لكن المدلول المتكرر له وقعه المتجدد فى كل مرة بِحُكْم ما يَطْرأ على صياغته أو مَوْقعه أو علاقاته السياقية من تغيرات.

ومن ثم فإن هذه الظاهرة موجودة، ووجودها له دواعيه، وله أسراره ووظائفه وله دوره كذلك فى ميدان الإعجاز، وقد تنبه الكثير من البلاغيين لهذه الظاهرة القرآنية فأثبتوها ولم يُضَيِّعُوا وقتاً فى إنكارها، فشرعوا يدرسونها ويُنَقِّبون عن أسرارها، ورغم أن دراستهم هذه – فى عمومها – جاءت عابرة خاطفة، إلا أنها اقتربت كثيراً من مفهومها الصحيح، **وإليك ما يدل على ذلك:**

---

[1] يراجع فى ذلك أيضاً بداية حديث الرافعى عن التكرار فى كتابه: إعجاز القرآن ص٢١٩: ٢٢٠ المكتبة التجارية بمصر ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م.

فهذا أبو عمرو الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) فى كتابه: (البيان والتبيين) يقول: (وليس التَّكْرَار عيًّا ما دام لحكمة كتقرير المعنى، أو خطاب الغبى أو الساهى، كما أن ترداد الألفاظ ليس بعَيٍّ ما لم يجاوز مقدار الحاجة ويخرج إلى العبث، وهذا القرآن قد رَدَّدَ قصة موسى، وهود وهارون وشعيب وإبراهيم ولوط وعاد وثمود، كما رَدَّدَ ذكر الجنة والنار وغيرها، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم، وأكثرهم غبى غافل، أو معاند مشغول الفكر ساهى القلب)[١].

ومن يتأمل نماذج التَّكْرَار التى أشار إليها يجد أنها تدل على أن التَّكْرَار عنده لا ينحصر فى الألفاظ أو الصيغ المتماثلة المتطابقة، حيث إنَّ هذه النماذج التى ذكرها تتكرر فى القرآن مع تَنَوُّع كبير فى عرضها وأساليبها مهما كان فيها من بعض الألفاظ أو الصيغ المتماثلة.

وهذا ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) فى كتابه: (تأويل مشكل القرآن) يقول فى خلال محاولته بيان الحكمة من التَّكْرَار فى القرآن: (... وكان أى الرسول ﷺ يبعث إلى القبائل بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، وقصة لوط إلى قوم – فأراد الله بلطفه ورحمته أن يُشْهِر هذه القصص فى أطراف الأرض ويُلْقيها فى كل سمع، وَيُثبتها فى كل قلب، ويزيد الحاضرين فى الإفهام والتحذير)[٢]، ثم يقول بعد ذلك: (وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضها يجزئ عن بعض كتكراره فى ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾ وفى سورة الرحمن بقوله: ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ فقد

---

[١] البيان والتبيين ٣/ ٣١٤ تحقيق: عبد السلام هارون طبع: الخانجى بالقاهرة.

[٢] تأويل مشكل القرآن ص٢٣٤ تحقيق: السيد أحمد صقر. طبع: دار التراث بالقاهرة ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م، وطبع: المكتبة العلمية بيروت لبنان.

أعلمتك أن القرآن نزل بلسان القوم، وعلى مذاهبهم، ومن مذاهبهم فى التَّكْرَار إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم فى الإختصار إرادة التخفيف والإيجاز)[1].

من هذا الكلام يظهر أن ابن قتيبة يُسَمِّى هذا النوع الأخير بتكرار الكلام من جنس واحد، وذلك يَعْنى ضمناً أن فى ذهنه مقابلاً آخر لهذا النوع لا يكون الكلام فيه من جنس واحد متوافق ومتطابق تماماً، بل يكون فى صيغ متنوعة بينها تشابه وإن اختلف بعضها عن بعض بالزيادة والنقص أو بالتقديم والتأخير أو بالإجمال والتفصيل، أو غير ذلك من طرق التنوع فى الصياغة والأساليب، وهذا المقابل هو ما عبر عنه – فى أول كلامه – بتكرار الأنباء والقصص على سبيل التعبير عن الشىء بأَظْهَر ما فيه، فإن تكرار الأنباء والقصص من أبرز مظاهر المثانى القرآنية بالفعل كما أَنَّ تنويع القرآن فى طريقة عرضها أمر واضح أيضاً.

وهذا ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ)[2] يَتَحَدَّث أيضاً عن التكرير فيقول: (واعلم أن هذا النوع من مَقَاتِلِ علم البيان، وهو دقيقُ المأْخَذ، وحدُّه هو دلالة اللفظ على المعنى مردَّداً، وربما اشتبه على أكثر الناس بالإطناب مرة وبالتطويل أخرى، وهو ينقسم قسمين: أحدهما يوجد فى اللفظ والمعنى، والآخر يوجد فى المعنى دون اللفظ، فأما الذى يوجد فى اللفظ والمعنى فكقولك لمن تستدعيه: أسرع أسرع ...

---

[1] السابق ص٢٣٥.

[2] هو أبو الفتح نصر الله ضياء الدين بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى، المعروف بابن الأثير الجزرى ٱلمَوْصِلى، وُلِدِ فى يوم الخميس العشرين من شعبان عام ثمان وخمسين وخمسمائة، بجزيرة ابن عمر، له من المؤلفات الكثير منها: المثل السائر، والوشْى المرقوم فى حل المنظوم، وغير ذلك. ينظر: معجم البلدان ٣/ ١٠٢، وفيات الأعيان ٣/ ٦٦.

وأما الذى يوجد فى المعنى دون اللفظ كقولك: أطعنى ولا تعصنى، فإن الأمر بالطاعة نهى عن المعصية ...)[1].

من صدر كلامه – رحمه الله – يَتَّضح مدى إحساسه بخَطَر القضية التى يتحدث عنها، وهو خَطَرٌ يَتَمثَّلُ –كما يُفهم من كلامه أيضاً – فى انطواء أساليب التَّكْرَار على وظائف أو أسرار تقتضى دقة الفهم والنظر لاستجلائها، مع عدم الخلط بين هذه الأساليب وغيرها مما قد يلتبس بها من طرق البيان الأخرى.

وقد عَرَّفَ – رحمه الله – التَّكْرَار أولا تعريفاً مُجْملاً فى قوله: (هو دلالة اللفظ على المعنى مردداً) ثم اتَّضَح مفهوم التَّكْرَار عنده حينما قَسَّمه إلى قسمين: قسم يتكرر فيه الكلام لفظاً ومعنى، وقسم يتكرر فيه المعنى دون اللفظ، فهذا القسم الثانى يدل على أن التَّكْرَار عنده لا ينحصر فى نطاق الألفاظ الْمُتَّفقة، وإنما هو ذو أبعاد ومستويات متعددة، ثم إنه – رحمه الله – قد طَبَّق مَفْهومه هذا بعد ذلك من خلال بضعة نماذج قرآنية، أَبْدَى فيها كثيراً من النَّظَرات والاجتهادات الدقيقة[2]. **أما أصحاب** كتب (المتشابه اللفظى) و (علوم القرآن) الذين عَرَّفْت بهم من قبل، فقد كانوا أصحاب الجهد الأكبر فى العناية بهذه الظاهرة التى يدور الحديث عنها، كما انطلقوا فى دراستها من مفهوم التَّكْرَار الشامل الذى ذَكَرْتُه – وهو ما ستوضحه الشواهد التطبيقية فى هذه الكتب[3] – وإن لم يكونوا قد عَبَّروا أيضاً عن هذا المفهوم تعبيراً نظرياً أو اصطلاحياً مُنْضَبطاً إلى حد كبير، وهو ما

---

[1] ينظر: المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ٢/ ١٥٧: ١٥٨ تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد طبع: مصطفى الحلبى ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م.

[2] ينظر هذه النماذج فى الفصل الذى عقده عن التكرار بكتابة: المثل السائر ٢/ ١٤٦: ١٧١ طبع: المكتبة العصرية صيدا، بيروت تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد.

[3] سوف أذكر نماذج واضحة لهذه الشواهد بالمطلب الثانى من المبحث الثانى.

يتضح فى قول الخطيب الاسكافى بأنه صَنَّف كتابه فى (الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة)[١].

فما يُسَميه ابن قتيبة بتكرار الكلام من جنس واحد **وما يُسَمِّيه** ابن الأثير بتكرير اللفظ والمعنى **هو ما يسميه** الخطيب بتكرار الكلمات المتفقة، وما يقابل ذلك من تكرار الصيغ المتنوعة، **أو ما يسميه** ابن الأثير بتكرار المعنى دون اللفظ هو **ما يسميه** الخطيب بتكرار الكلمات المختلفة.

والخلاصة: أنه بعد كل ما سبق يمكننى القول بأن مفهوم المثانى يكاد يكون هو مفهوم التَّكْرَار حسب مدلوله الشامل الذى ارتضيته، وقد اخترت مصطلح (المثانى)، ليكون عَلَماً على هذا البحث دون مصطلح (التَّكْرَار) ودون مصطلح (المتشابه) أيضاً الذى فَضَّلَه القدماء[٢] **للمبررات التالية:**

أولاً: إن لفظ (المثانى) يُعَدُّ اصطلاحاً قرآنياً مُتَمَيِّزاً أَطْلَقه القرآن على ظاهرة بارزة من ظواهره الأسلوبية، فالأَوْلَى أن نُسَمى هذه الظاهرة بما سَمَّاها به مصدرها، وإن استخدمنا معها غيرها – كالتَّكْرَار أو المتشابه – فإنما هو فقط من قبيل الإيضاح والتفصيل.

ثانياً: إن مدلول لفظ (المثانى) رغم مقاربته الشديدة لغوياً لمدلول التَّكْرَار إلا أنه هو الأقدر على التعبير الحقيقى عن واقع الظاهرة التى يدل عليها فى القرآن، لأنه يتكفَّل بالإخراج من هذا النطاق الضيق – الذى يَنْحصر فيه

---

[١] سبق كلامه هذا أثناء الحديث عنه فى المطلب السابق.

[٢] وإن كان أحدهم – وهو ابن جماعة – قد سمى كتابه: (كشف المعانى عن متشابه المثانى) كما سبق فى المطلب السابق، لكن لغياب هذا الكتاب لم أتمكن من تحديد مقصد صاحبه فإما أنه يريد بلفظ المثانى فى هذا العنوان (القرآن) نفسه على اعتبار أن (المثانى) أحد الأسماء التى أطلقت بالفعل على القرآن كما جاء فى: الإتقان ١/ ٦٨، وإما أنه يريد به نفس المعنى الإصطلاحى الذى أقصده.

التَّكْرَار لدى البعض – والإنطلاق إلى ظاهرة بيانية قرآنية محددة يراد فهمها ودراستها بصرف النظر عن أى جدل يكون حول معنى التَّكْرَار.

ثالثاً: إن لفظ المثانى ببنائه الصرفى – على وزن مفاعل – هو ٱلأَدَلّ على هذه الظاهرة التى يعبر عنها بلفظ التَّكْرَار، لأنه جمع تكسير مفرده (مثناه) وبذلك فإنه لا يعبر فقط عن هذه الظاهرة – كما هو الحال فى لفظ التَّكْرَار –بل يعبر أيضاً عن مفرداتها أو أفرادها مما يُعَمِّقِ الإحساس بها ويحيلها إلى واقع مشهود تتوالى فيه هذه الأفراد – أو المثانى – نابضة بالحركة والحياة.

رابعاً: إن مدلول المثانى وثيق الصلة بمدلول التَّكْرَار حيث إن التشابه بين شيئين أو أكثر – كما سبق – ما هو إلا صفات تتكرر بدرجة معينة فى الأشياء المتشابهة، وبالتالى فإن مصطلح المتشابه اللفظى الذى اختاره السابقون وثيق الصلة بمصطلح المثانى الذى اخترته، أو يحمل لديهم نفس مدلوله، لكن عدلت عنه أيضاً لأنه – بنفس لفظه – لا يحمل معنى التثنية والترديد، وهو المعنى الجوهرى الذى تدور حوله هذه الظاهرة التى أُعْنَى بدراستها.

خامساً: إن اختيارى لمصطلح (المثانى) دون المتشابه قد جَنَّبَنى أيضاً أى نوع من الخلط مع المتشابه الآخر الذى يقابل المحكم كما سبق أن أشرت إليه فى بداية المطلب السابق، وَجَنَّبى كذلك الخلط بين هاتين الصفتين الواردتين فى قوله تعالى: ﴿**كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ**﴾ وقد سبق فى المطلب الأول من هذا المبحث أن تحدثت عن الصلة الوثيقة بينهما مع تميز كل منهما فى الوقت نفسه بمدلوله الخاص.

وفى النهاية إذا كنت قد استغرقت مطالب هذا المبحث فى تحديد المفهوم النظرى للمثانى، فإن مطالب المبحث التالى على استحياء شديد[1] يمكن أن تكون كفيلة بالكشف التطبيقى عن هذا المفهوم.

[1] أقول ذلك لأنه سوف يكون لى إن شاء الله فى المستقبل القريب عَوْدٌ إلى هذا الموضوع لمحاولة الكشف عن كثير من وظائف المثانى وأسرارها فى القرآن الكريم.

المبحث الثانى
آفاق المثانى القرآنية

المطلب الأول: المثانى ونظام السورة:

إنَّ فَهّم آفاق المثانى يَكْمُن فى إدراك صلتها الوثيقة بنظام السورة القرآنية أو بنائها الخاص إذ إن فهم هذا النظام أو البناء يؤدى مباشرة إلى فهم هذه الآفاق، وَمِنْ ثَمَّ فسأقوم بتوضيح أن البناء الخاص بكل سورة قرآنية يَرْتَكِزُ أساساً على أهداف القرآن ومنطلقاته بوجه عام، **فأقول:**

إنه من المعلوم والواضح أن القرآن الكريم كتاب هداية إلى المنهج الأمثل فى الحياة عقيدة وسلوكاً: ﴿**إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْـوَمُ وَيُبَشِّـرُ الْمُـؤْمِنِينَ الَّـذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً**﴾ "الإسراء: ٩" ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْـكَ لِتُخْـرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ "إبراهيم: ١".

والهداية تقوم على عنصرين أساسيَّيْن هما: (التبصير) و (التغيير) ولا يمكن أن ينتقل الإنسان من الظلمات إلى النور قبل أن يُبْصر وقبل أن يتغيَّر، **ولتحقيق هذين** العنصرين لابد من وسيلتين، **الأولى:** العلم والتبيين بالنسبة للعنصر الأول، وهو التبصير، **الثانية:** التربية بالنسبة للعنصر الثانى، وهو التغيير.

وما يقوم به القرآن من خلال نظام السورة يعتمد على الوسيلتين السابقتين دون فَصْل بينهما، بل يمزج بينهما مَزْجاً، لأن العلم المُنْفَصل عن التربية فى عالم الهداية لا قيمة له، وَيَبْنى برنامجه على نظام الجرعات أو الشُّحنات المتدرجة، حتى يتم النمو خطوة خطوة، كما ينمو النبت ٱلغَضُّ الرَّقيق حتى يصير شجرة صلبة يانعة، كما أنه يُرَكِّز على كل ما يُحْدث التأثير فيمن يُرَبِّيه، لأن هذا التأثير هو الذى يقود إلى التغيير.

إن مضمون هذا التصور السابق هو – تقريباً– ما يقوم به القرآن من خلال نظام السورة، فهو لا يحقق أهدافه من خلال كتاب يعتمد على مخاطبة العقول

وحدها، أو على تقديم المعلومات لذاتها بطريقة الأبواب والفصول التى يَخْتَصُّ كل منها بموضوع يَفْرُغ منه ليَنْتَقِل منه إلى غيره، بل يُحَقِّقُها من خلال نظام السورة القائم على ٱلْجَمع بين العلم والتربية وٱلْمُتَوَسِّل إلى هذه التربية بوسائلها الخاصة.

وأوضح ذلك فأقول: إن أساس السورة القرآنية ليس هو تناول قضية معينة تختص السورة بطرحها ومناقشتها برغم كثرة ما تَعَرَّض له القرآن من قضايا، إنما أساسها أنها جُرْعَةُ هداية موجَّهة إلى النفس البشرية التى لا يمكن أن تُقَسَّم من الداخل أقساماً، كُلمَّا عالَجْت منها قسماً توجَّهت إلى غيره دون أن تعاود الرجوع إلى القسم الأول مرة أخرى، إنما هى وحدة متكاملة متشابكة تماماً، لا يَنْفَصِل القديم فيها عن الجديد، ولا العقل عن العاطفة، ولا القوة عن الضعف إلى آخره.

ولهذا فإن الطريقة ٱلْمُثْلى فى مخاطبة هذه النفس أو تربيتها يجب أن تقوم على الأسس التالية:

الأول : مراعاة التكامل أو الشمول قَدْرَ الإمكان، مَهْمَا حدث من تركيزٍ على جانبٍ بِعَيْنه أو أكثر فى بعض الأحيان.الثانى : مراعاة التدرج أيضاً، لأن من طبيعة هذه النفس النفور وسرعة النكوص إذا ما فاجَأْناها وهجَمْنا عليها بالعلاج دفعة واحدة. الثالث :الاهتمام بكل ما يُحْدِث التأثير فى هذه النفس، لأن التأثير هو الطريق إلى التغيير أو التحول إلى النمط المطلوب. الرابع : دوام التعهد والتنبيه، وعدم الانخداع بالنمو والتقدم، لأن من طبيعة هذه النفس أيضاً – إذا تَوانَيْنَا عنها – سرعة التبدُّل والتقلُّب[1].

---

[1] يراجع أيضاً: ما ذكره الأستاذ محمد قطب عن مهمة القرآن التربوية وصلتها بالتذكير، وذلك مبتدأ حديثه عن التكرار فى القرآن ص٢٤٥ من كتابه: دراسات قرآنية، طبع: دار الشرق ط٣ ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

هذه الأسس – باختصار – هى الركائز التربوية التى يقوم عليها نظام السورة القرآنية الذى يُبْنَى على تَخيُّر مادة معينة – مهما كان اتصالها ببعض الموضوعات أو القضايا – لمعالجتها المعالجة التربوية التى تتوافق مع النفس الإنسانية حسب طبيعتها التى سبق الإشارة إليها.

وبناء على ما تَقَدَّم يمكن القول بأن الأساس فى تَمُّيز كل سورة عن غيرها ليس هوَ تَعِرُّضها لموضوع بعينه يَخُصُّها أو لقضية تَنْفَرِد بها – رغم أن ذلك قد يكون واضحاً فى بعض السور – إنما الأساس فى هذا التمييز هو نظامها الذى يقوم على أهداف محددة تختص بها السورة وتَرْمى إلى تحقيقها من خلال مُعالجَة مَادَّتها مُعَالجةً مخصوصة بالتركيز على جوانب بعينها، وبالإجمال أو التفصيل، وبالتلميح أو التصريح، وبطبيعة إطارها اللُّغَوى أو البيانى نفسه الذى يعد بإمكانياته الخاصة الأداة الأساسية فى هذه المعالجة[1].

فالموضوع الواحد أو الموقف الواحد يمكن إذا أن يَتَردَّد فى أكثر من سورة أو فى أكثر من موضع داخل السورة الواحدة، لكنَّه فى كل مرة يكون ذا مذاق خاص وذا أثر خاص تبعاً لخصوصية أهداف كل سورة وما تَفْرضُه من طريقة مخصوصة أيضاً فى أنتِقَاء مادتها وَمُعَالَجَتها على النحو الذى أشرت إليه سابقاً.

وإلَيْكَ مثالا لذلك بسورتين قصيرتين حتى يمكن حصر الرؤية فيهما:

[1] استفدت كثيراً فى فهم نظام السورة القرآنية من الظلال للشيخ سيد قطب من خلال مقدماته لتفسير مختلف السورة القرآنية حيث وضح بجلاء كيف أن لكل سورة شخصيتها وآثارها الخاصة التى تتفرد بها كما يتفرد كل كائن حى بشخصيته وآثاره المميزة ومن ذلك مثلاً مقدمته لتفسير سورة البقرة.

السورة الأولى هى سورة (الزلزلة): ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾.

والسورة الثانية هى سورة "القارعة": ﴿**الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ**﴾.

ومن يتأمَّل مَضْمون السورتَيْن يجد:

أنَّ كلْتَيْهما تَدُورَان حول عَنْصَرَيْن أسَاسِيَّيْن: **الأول:** هو القيامة وأهوالها، و**الثانى:** هو الحساب ومصائر الخلق هَمَا هُمَا فى كلْتَيْهما، **فالعنصر الأول** فى (الزلزلة) من أولها إلى آخر الآية الخامسة ﴿**بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا**﴾، **والعنصر الثانى** فيها من بعد ذلك إلى آخر السورة، **والعنصر الأول** فى (القارعة) من أولها إلى آخر الآية الخامسة أيضاً ﴿**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ**﴾ **والعنصر الثانى** من بعد ذلك إلى آخر السورة.

ومع أن هذان العنصران هُمَا هُمَا فى كلتا السورتين إلا أَنَّ هناك فارقا بينهما فى طريقة تناول هذين العنصرين، وفيما يترتَّب على هذه الطريقة من الطابع المميز والآثار الخاصة لكل سورة.

فالعنصر الأول فى السورة الأولى قد رَكَّز على مَشْهد بعْينه من مشاهد القيامة، هو زلزلة هذه الأرض التى نَحْيَا فوقها، ثم تَفَجُّرها وإخراجها لما فى جوفها من نفس مادتها أو من البشر الذين دفنوا بها، وهى الأرض التى أَلِفَ الإنسان استقرارها

والأمان فوقها، ومن ثم يسأل هذا الإنسان: مالها؟ ويزيد فى الهول أن تَتَكَلَّم الأرض نفسها – بوحى الله لها – لِتُخْبِر كل إنسان بما ارتكبه على ظهرها[1].

وهذا االعنصر نفسه فى السورة الثانية قد أراد أن يَبُثَّ شيئاً آخر فى النفوس بشأن القيامة، وهو قَرْعُها للأسماع والقلوب بأحداثها وأهوالها إنها القارعة، ثم قال:

---

[1] كما قال رسول الله ﷺ: (أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها) والحديث: أخرجه الترمذى فى كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع باب: ٧، وقال: هذا حديث غريب ٤/ ٣٤٢ رقم ٢٤٢٩، وفى كتاب: تفسير القرآن باب: ومن سورة إذا زلزلت، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب٥/ ٢٧٧ رقم ٣٣٥٣، والنسائى فى الكبرى، كتاب: التفسير باب: الزلزلة ٦/ ٥٢٠، وأحمد فى المسند ٢/ ٣٧٤، والحاكم فى المستدرك ٢/ ٥٣٢ وصححه، وقال الذهبى: يحيى هذا منكر الحديث قاله البخارى، قلت: أخذ الذهبى – رحمه الله – بالأَشَدّ، فقد تَفَرَّد البخارى بَجْرحه فى حين خَالَفَه أبو حاتم فليَّنه حيث قال: مضطرب الحديث، ليس بالقوى، وَوَثَّقه ابن حبان والحاكم.

والحديث له شاهد من حديث أنس، أخرجه البيهقى فى الشعب ٧٢٩٦ لكنه من طريق رشدين بن سعد بن يحيى بن أبى سليمان، ورشدينَ واهٍ، وهذا من أوهامه كونه عن أنس، والمحفوظ عن سليمان عن سعيد عن أبى هريرة، فهذا شاهد لا يُفْرَحُ به.

وله شاهد فى حديث ربيعة الجرشى، أخرجه الطبرانى (٤٥٩٦) وفيه ابن لهيعة، وربيعة مُخْتَلفٌ فى صُحْبته، والجمهور على أن له صحبة، ويشهد لأصول معناه حديث مسلم رقم (١٠١٣)، والبغوى فى شرح السنة برقم (٤١٣٦) عن واصل بن عبد الأعلى به ... (تقيئ الأرض أفلاذ أكبادها أمثال الاسطوانة من الذهب والفضة، فيجيىء القاتل فيقول فى هذا قتلت، ويجيئ القاطع فيقول: فى هذا قطعت رحمى، ويجيئ السارق فيقول: فى هذا قطعت يدى، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً، وكذا أخرجه الترمذى برقم (٢٢٠٨) وابن حبان (٦٦٩٧)، وأبو يعلى (٦١٧١) من طريق واصل بن عبد الأعلى به.

وبهذا يتبين أن إدراج الألبانى له فى (ضعيف الترمذى) برقم (٦٦٤) والجزم بضعفه فيه نظر، والصواب: أن الحديث يدور بين الضَّعف والحُسْن إن لم يكن حسناً بشواهده، والله أعلم.

(وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا الْقَارِعَـةُ) هكذا بإبهام وإطلاق قبل أن يُعْطى الجواب ليقول للكل فُرَادى أو مجتمعين: تصور أنت عن هذه الأحداث والأهوال ما تشاء، **ثم جاء الجواب مُرَكَّزا أيضاً على مشهدَيْن مُحَدَّدين** أحدهما: يتعلق بانطلاق الناس من قبورهم مضُطَّربين مُتَفَرّقين كالفراش المبثوث، فضلا عن هزالهم وَضَعْفهم الذى لا يُصَوِّره إلا ضعف الفراش وهزاله، والثانى: يتعلق بالانقلاب والتدمير الشامل الذى سيحدث فى الكون، والذى أشير إليه فى هذه السورة بجانب منه، وهو نسف الجبال وتبديها تماما إلى الدرجة التى تَغْدو فيها كالصوف المندوف الهش المتطاير فى الهواء.

وبالانتقال إلى العنصر الثانى فى السورة الأولى نجده يتحدث عن صدور الناس أشتاتاً، أى انطلاقهم من قبورهم مُبَعْثرين مَذْعورين ليُحاسَبوا وينالوا جزاءهم، فمنهم من يُوَجَّه إلى النعيم، ومنهم من يوجه إلى الجحيم، هذا الجزاء الذى يتم فى ذلك اليوم بدقة مُتَناهية تبلُغ حد تقدير الذَّر من الخير ومن الشر، يراه كل إنسان فى صحيفته ويُؤَثِّر على مصيره حين ترجح كفة على أخرى فى وزن حسناته وسيئاته.

وأما هذا العنصر فى السورة الثانية، فإنه يَعْرض أمر الحساب من خلال التركيز على مَشْهد الموازين، وما أدراك ما هذه الموازين وما تُوحِى به؟ إنَّها رَمْز العدل عندنا فى هذه الدنيا، فإذا بها يوم الحساب تزن شيئاً آخر لا يخطر على بال، إنه الحسنات والسيئات، ثم سرعان ما تتبين العاقبة: إما أنها العيشة الراضية فى الجنة، وإما أنها المصير ٱلمُفْجع فى نار حامية.

هكذا تدور السورتان –كلتاهما – حول عنصرين مُحَدَّدَين، لكن طريقة معالجتهما فى كل سورة تتميز عن طريقة الأخرى تماما، من حيث مواضع التركيز

ومن حيث التفاصيل ومن حيث النسق اللغوى بجميع جوانبه التركيبية والتصويرية والإيقاعية، فتميزت كل سورة بالتالى فى عطائها وإيحاءاتها وآثارها.

وبعد هذا المثال المختصر لنظام السورة القرآنية الذى يَصْدُق على كل سورة فى القرآن، مع تَنَوُّعه بالطبع حسب تنوع السور فى أهدافها وطراق معالجتها أَخْلُص إلى ما يأتى:

أن ظاهرة المثانى نتيجة طبيعية لهذا النظام، أو هى عنصر أساسى من عناصره، والسورة القرآنية تبعاً لهذا النظام كأنما هى لوحات فنية تتكرر فيها كثير من المناظر والألوان، وإن كان لكُلِّ لَوْحَة – مع ذلك – كيانها الخاص وتأثيرها المتميز، وذلك لاختلاف الأهداف أو الآثار التى يراد تحقيقها من كل لوحة، فيختلف بعضها عن بعض –بالتالى – فى طريقة عرض هذه المناظر، وفى الزوايا التى يراد إبرازها أو إخفاؤها، وفى كل ما يكون فى اللَّوْحَة من الألوان والملامح والظلال واللَّمَسَات.

ولقد أصاب – الذين عَرَضْت لأهم جهودهم سابقاً فى المثانى القرآنية – أيما إصابة حين قرروا تصريحاً أو تلميحاً الصلة الوثيقة بين المتشابه اللفظى وعلم المناسبات، وهو العلم الذى يبحثون من خلاله فى القرآن ما يسمى اليوم بالوحدة العضوية أو التناسب العضوى بين أجزاء الكلام.

ذلك أن مقاصد القرآن ومدلولاته عموماً دائمة التردُّد فى أكثر سوره وآياته، مع تفرد كل سورة فى الوقت نفسه بكيانها وتأثيرها الخاص كما ذَكَرْت، ومعنى ذلك أن ماَ يَتَكَرَّر من هذه المقاصد والمدلولات إنما يَتَلَوَّن فى كل سورة بلون خاص، تبعاً لطبيعة السورة نفسها وأغراضها وطريقتها فى تناول مضمونها، فالذى يريد أن يفهم أى تعبير أو مدلول قرآنى عليه أن يعود به إلى سياق السورة كلها، ليربطه به وليفهمه فى ضوئه، طالما أن هذا السياق له طبيعته ومراميه الخاصة المستمدة من

طبيعة سورته نفسها ومراميها، والذى يترتب عليه بالطبع **بيان** – فيما يراد فهمه – السبب فى مجيئه على صورة معينة، وإذا كان قد ثُنِّى فى سورة أخرى أو أكثر، **وأيضاً** معرفة السبب فى تغير صورته أو فى مجيئه بصيغ أخرى تقديماً أو تأخيراً أو زيادة أو حذفاً أو إجمالا أو تفصيلا ونحو ذلك، وأيضاً – بناء على نفس القاعدة – معرفة سر الصيغ المتماثلة أو المتطابقة تماماً فى القرآن سواء ما تكرر منها فى عدة سور أو ما تكرر فى سياق السورة الواحدة.

قال السيوطى صراحة فى (معترك الأقران) خلال تعريفه بالآيات المشتبهات: (وهذا النوع يتداخل مع نوع المناسبات)، وهكذا قال أيضاً فى الإتقان[1] **وقال صاحب ملاك التأويل أيضاً:** إن غرضه من كتابه (تَوْجيه ما تَكَرَّر من آياته لَفْظاً أو اختلف بتقديم أو تأخير وبعض زيادة فى التعبير، فعسر إلا على الماهر حفظاً، وظن الغافل من التدبر، وألْمُخْلد إلى الراحة عن التفكُّر أن تخصيص كل آية من تلك الآيات بالوارد فيها مما خالفت فيه نظيرتها ليس لسبب تقتضيه وداع من المعنى يطلبه ويستدعيه ..)[2].

وتخصيص كل آية بالوارد فيها – كما جاء فى هذا الكلام – أى: بصيغتها التى جاءت عليها، وما خالفت فيه نظيرتها مُتَعَلِّقٌ بالصيغة أيضاً حين تختلف مع صيغة مناظرة لها بأى نوع من أنواع الاختلاف التى سبق أن أَشَرْت إليها، فهو – رحمه الله – إذاً فى كلامه يَنْعِى على من يَظُنُّ أن اختلاف المثانى بعضها عن بعض فى أشكالها وصيغها أمرٌ عَفوى لا سَبَبَ ولا دَاعِىَ له من معانى السورة، ولا شَكَّ أن معانى السورة إنما ترتبط بأهدافها، كما أنها هى التى تشكل سياقها.

المطلب الثانى: المثانى فى ضوء التفسير التحليلى:

---

[1] ينظر: معترك الأقران ١/ ٣٩، والإتقان ٢/ ١٤٦.

[2] ينظر: ملاك التأويل ١/ ١٤٥.

فى هذا المطلب سوف أحاول تحديد أبرز ملامح المثانى القرآنية من خلال صلتها بجانب مُحَدَّدٍ، هو جانب السياق الذى تَتَرَدَّدُ فيه، أى من خلال ارتباطها بأهداف السورة وما تقتضيه هذه الأهداف من صياغات وتشكيلات لغوية بعينها، وَمِنْ ثَمَّ فإن تناولها من خلال هذا الجانب يعد مباشرة تَنَاُولاً لَهَا فى إطار ما يُعْرَفُ بالتفسير التحليلى، أى التفسير الذى يتناول القرآن سورة سورة أو يتناول السورة آية آية بالترتيب والتسلسل، وسيكون هذا التناول من خلال مجموعة من الشواهد التى أَعْرِض كُلا منها، ثم أُتْبِعَه بما يلزم من التحليل والتعليق على النحو التالى:

الشاهد الأول: "يقول الله تعالى عن السيدة مريم:﴿ **قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ ..**﴾ "آل عمران: ٤٧" ﴿ **قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ** ﴾ "مريم: ٢٠"، **وفى ذلك يقول الكرمانى**[1]: (لأن فى هذه السورة تقدم ذكر المسيح، وهو ولدها، وفى (مَرْيَمُ) تقدم ذكر الغلام، حيث قال: ﴿ **لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً** ﴾)[2].

وهذا تعليل طيب مبارك وصائب بالفعل، حيث رَدَّ الكرمانى هذا الاختلاف بين النَّصَّيْن إلى طبيعة سياق كل منهما، **وهذا السياق فى سورة (آل عمران)** كالتالى: ﴿ **إِذْ قَالَتِ الْمَلَآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ** ﴾ "الآيات من ٤٥ – ٤٧"، **وفى سورة مريم:** ﴿ **فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا**

---

[1] هو: تاج القراء محمود بن حمزة الكرمانى، صَنَّف البرهان، وشرح الغاية لابن مهران. ينظر فى ترجمته: غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٢٩١، وطبقات المفسرين للداودى ٤/ ٣١٢: ٣١٣.

[2] أسرار التكرار فى القرآن المسمى البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان لتاج القراء محمود بن حمزة الكرمانى ت نحو ٥٠٥هـ. الشاهد ٥٦ ص٨٩ دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا طبع: دار الفضيلة.

فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾ "الآيات من ١٧-٢٠".

ففى **السياق الأول**: بَشَّرت الملائكة مريم بالمسيح ونَسَبَتْهُ إليها (ابن مريم)، فهو ولدها، ومن ثم كان المناسب أن يكون ردها: ﴿**أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ**﴾ وفى **السياق الثانى**: حينما كان تنفيذ الأمر الإلهى قال لها الملك: ﴿**إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً**﴾ فكان ردها مناسباً حيث قالت: ﴿**أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ**﴾.

الشاهد الثانى: يقول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ**﴾ "آل عمران: ٧٣" ﴿**قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى**﴾ "البقرة: ١٢٠" **يعلل الكرمانى الاختلاف بين الصيغتين بقوله**: (لأن الهدى فى هذه السورة هو الدين، وقد تقدم فى قوله: ﴿**لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ**﴾ "الآية: ٧٣" وهدى الله: الإسلام، فكأنه قال بعد قولهم: ﴿**وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ**﴾ قل: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ**﴾ كما سبق فى أول السورة، والذى فى البقرة معناه: القبلة، لأن الآية نزلت فى تحويل القبلة، وتقديره: قل: إن قبلة الله هى الكعبة)[1].

وَأُوَضِّح ذلك فأقول: إن سورتى (البقرة) و(آل عمران) قد أثارتا قضايا متعددة مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن هذه القضايا فى سورة آل عمران،

قضية بيان الدين الحق وأنه الإسلام، ولهذه القضية خيوط واضحة من بداية السورة: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَآجُوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ "الآيتان: ١٩-٢٠"، ثم تداخلت هذه الخيوط مع غيرها مما يَتَّصل بهذه القضايا، وعادت لتظهر واضحة

---

[1] السابق: الشاهد ٦٢ ص٩٢.

مرة أخرى فى قوله تعالى: ﴿**وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ "الآيات من ٦٩: ٧٣".

فإذا كان أهل الكتاب يكفرون بآيات الله وهم يعلمون صدقها، ويُلْبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق، ويريدون أن يفتنوا المسلمين عن دينهم، فإنهم إذاً حين يقولون: ﴿**وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ**﴾ يقصدون دينا خاصاً اختلقوه وليس دين الله الحق، وَمِنْ ثَمَّ كان الرَّدُّ ٱلْفَوْرى المعترض وسط كلامهم: ﴿**قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ**﴾ أى: الدين الحق هو دين الله، والألف واللام فى (الْهُدَى) **تفيد** الجنس، أى: الهدى أو الدين فى أصله التام الشامل هو دين الله، **أو تفيد** العهد، أى: الهدى أو الدين الذى ذكرناه من قبل فى أول السورة، والذى تعرفون أنتم أيضاً حقيقته وإن كتمتموها هو دين الإسلام.

وبالانتقال إلى سورة (البقرة) يتبين أن قضية (تحويل القبلة) من القضايا الهامة التى أثارتها، مواجهة لِإرْجَاف ٱلْمُرْجِفين من أهل الكتاب والمنافقين، وتثبيتاً لإيمان المؤمنين، وقد تناولت السورة القضية تَنَاوُلاً مباشراً من خلال الآيات التى تبدأ بقوله تعالى: ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ...**﴾ "الآية: ١٤٢" حتى آخر الآية ١٥٠" لكنها كانت تُمَهِّد لهذا التناول قبل ذلك – تلميحا أو تضمينا ، كما فى قوله تعالى:﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾ "الآية: ١٠٩"، وقوله: ﴿**وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ "الآية: ١١٥" حتى جاء قوله تعالى: ﴿**وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ**

النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ "الآية: ١٢٠".

فَهُدَى الله فى هذا السياق – كما يريد الكرمانى – ليس على المعنى العام الذى هو الدين، إنما المراد به هدى بعينه فى واقعة بعينها، أى: تشريع محدد، وهو الأمر الإلهى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فيكون المعنى: قل إن تشريع الله المختص بتحويل القبلة هو الحق، أو – بعبارة الكرمانى – قل: إن قبلة الله هى الكعبة.

الشاهد الثالث: يقول الله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا**﴾ "الأنعام: ١١" ويقول: ﴿**فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ**﴾ بالفاء وليس بـ (ثم) "آل عمران: ١٣٧" و"النحل: ٣٦"، "النمل: ٦٩" و"العنكبوت: ٢٠" و "الروم: ٤٢".

وفى ذلك يقول الكرمانى: (لأن ثُمَّ للتراخى، والفاء للتعقيب، وفى هذه السورة – سورة الأنعام – تقدم ذكر القرون فى قوله: ﴿**كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ**﴾ "الآية: ٦" ثم قال: ﴿**وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ**﴾ "الآية: ٦" فَأُمِرُوا باستقراء الديار، وتَأَمُّل الآثار، وفيها كثرة، فيقع ذلك سيرا بعد سير، وزمانا بعد زمان، فَخُصَّت بثم الدالة على التراخى بين الفعلين ليُعْلم أن السير مأمور به على حدة، والنظر مأمور به على حدة، ولم يتقدم فى سائر السور مثله، فخصت بالفاء الدالة على التعقيب)[1].

ومن يتأمل هذا الكلام جيداً يجد أن الكرمانى رجع إلى سياقات هذه المثانى – التى تعرض لها – فى سورها كى يَعْرف سرَّ اختصاص النص الأول بالحرف (ثم) دون بقية النصوص التى اختصت بحرف الفاء، فتبُّين له أن سياق سورة (الأنعام)

---

[1] البرهان فى توجيه متشابه القرآن الشاهد ٩٤ ص١٠٥، وينظر: إرشاد العقل السليم لأبى السعود ٢/ ١٢٨: طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

السابق على النص الأول فيه توجيه ظَاهرٌ مُبَاشرٌ إلى القرون الأولى، لأخذ العبرة مما أنزله الله بها نتيجة تكذيبها واستكبارها عن الحق، مما اقتضى أن يقول بعد ذلك: ﴿**قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ فهو يطلب منهم أن يطيلوا النَّظَر والفِكْر ويُطِيلوا البحث والدَّرْس بشأن هذه الأمم، ثم يستخلصوا العبرة بعد ذلك، فالفاصل بين هذا الطلب، وبين نتيجته فاصل شاسع إذا لا يناسبه إلا حرف (ثم) الذى يفيد العطف مع التراخى، أما بقية النصوص، فإنه لم يسبقها مثل هذا التوجيه الذى أشرت إليه، وإن كان سياق كل منها – بطريق الفحوى – يتفق معه أو يؤدى إليه.

ومع ذلك أزيد هذا الشاهد وضوحاً من خلال الملْحَظَيْن التاليَيْن:

الأول: إن استجلاء الأمر فى هذا الشاهد لا يكفى معه الرجوع إلى السياق الجزئى الخاص بالنص، بل يحتاج كذلك إلى مراجعة سياق سورته كلها أو تَأَمُّل مراميها وأهدافها، ومن يراجع سورة (الأنعام) وحديث ٱلْمُفَسِّرين عنها، يَتَبَيَّن له أنها من السور ذات الخطر العظيم فى القضايا التى تعالجها والأهداف التى ترمى إليها[1] إنها سورة المواجهة العقدية الكبرى مع المشركين والمكذبين، تُنَاقِشُهم وَتُقِيمُ الحجة عليهم وتُصَحِّح تَصَوُّراتهم فيما يتصل بقضايا العقيدة الأساسية، كالتوحيد والألوهية وصدق الوحى والرسالة والبعث والجزاء، ونحو ذلك.

وإذا كان القرآن يُوَجِّه الأنظار فى كثير من سوره إلى أخبار الماضين وعواقب المكذبين، فإن دواعى هذا التوجيه تكون أجدر وألزم فى مثل سورة (الأنعام)

---

[1] يراجع فى بيان ذلك مقدمات كتب التفاسير على جهة العموم، ومقدمة الأستاذ سيد قطب لتفسير هذه السورة فى (الظلال) ٢/ ١٠٠٤ وما بعدها، ومقدمة الفخر الرازى فى (التفسير الكبير) ٦/ ٢٠٧ وما بعدها، ومقدمة القرطبى فى (الجامع لأحكام القرآن) ٦/ ٢٩٥ وما بعدها على الخصوص.

تَضْطَّلع بهذه المواجهة الكبرى مع أتباع هؤلاء المكذبين المستكبرين من أهل بيئتها وزمانها، وهذا التوجيه هو ما يُتَلَقَّى واضحاً منذ مطلع السورة مصحوباً بما يلائمه من التذكير ببعض الخصائص والصفات الإلهية مع الإشارة إلى إعراض هؤلاء المستكبرين عن الحق ومطالبهم المرذولة المتعسفة على هذه الشاكلة﴿ **وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ** ﴾ (الأنعام)"الآية: ٣" إلى آخر قوله تعالى :﴿ **قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ "الآية: ١١" ولا يفارقنا هذا التوجيه بعد ذلك، بل يُطَالعنا من أن لآخر فى سياقات وأساليب متنوعة خلال آيات السورة كلها[١].

الثانى: يدور كلام الكرمانى فى الشاهد فقط كما يظهر من النصوص التى ذكرها فى إطار المثانى التى تعبر عن التوجيه السابق بصيغة الأمر[٢]: قل سيرو .... ثم انظروا، سيروا ... فانظرو وهكذا، ولعله من المفيد أيضاً أن أشير إلى مجموعة أخرى من المثانى ذات الصلة الوثيقة بالشاهد موطن الكلام، وإن كان التوجيه فيها لا يتم بصيغة الأمر المباشر، وإنما بصيغة الاستفهام الذى يحمل معنى التعجب أو الإنكار أو ألْحَضّ، وذلك فى سبع آيات منها على سبيل المثال: قوله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾ "يوسف: ١٠٩" ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ "الحج: ٤٦"، ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا** ﴾ "الروم: ٩".

---

[١] يراجع الآيات: ٣٣: ٤٠، ٤٢: ٤٧، ٥٧: ٥٨، ٦٥: ٦٦، ١٣١، ١٤٧، ١٥٨ من سورة (الأنعام).

[٢] يراجع الآيات: (١٣٧) آل عمران، (١١) الأنعام، (٣٦) النحل، (٦٩) النمل، (٢٠) العنكبوت، (٤٢) الروم.

ومن يلاحظ هذه الآيات الثلاث وكذلك الأربع التى لم أذكرها[1] يجد أنها قد عطفت النظر أو التدبر على السير بالفاء أيضاً وليس بثم، وهذا بدوره يمكن أن يستنبط منه أمران:

الأول: أن الصيغ الاستفهامية التى صُدِّرت بها هذه المثانى بما تَحْمله من المعانى التى ذكرتها كَأَنَّما تُنْكِر على المخاطبين غَفْلَتَهم وتَحُثُّهم حثاً على المبادرة إلى النظر والاعتبار، فكان الأنسب لهذه الصيغ أن يستخدم معها العطف الذى يفيد الإتباع والتعقيب، دون ذلك الذى يفيد التراخى والتأجيل.

الثانى: أن استخدام هذه المثانى السبع للعطف بالفاء – حين يضاف إلى المثانى السابقة التى استخدمت نفس الأداة – كأنما يريد أن يعمق فى الحس هذه الخصوصية التى تفردت بها (مثناة) سورة الأنعام التى استخدمت (ثم) دون غيرها، وذلك تبعاً لمقتضيات سياقها وأهداف سورتها كما سبق توضيحه.

الشاهد الرابع: يقول الله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ "المجادلة: ٢٢".

هذه الآية الكريمة لم تُخْتَم أصلاً بذكر الفوز العظيم الذى ختمت به الآيات السابقة[2]، وقد ذُكِرَ فيها الجزاء، ثم تَبِعَه الثناء على هؤلاء الموعودين به، ثم

---

[1] يراجع هذه الآيات: (٤٤) فاطر، (٢١) و (٨٢) غافر، (١٠) محمد.

[2] وهى قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ "النساء: ١٣" وقوله سبحانه: ﴿**قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ "المائدة: ١١٩" وقوله تعالى: ﴿**أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ "التوبة: ٨٩"، وقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا**

التأكيد على أنهم هم المفلحون، فكان ختامها بذكر الفلاح وتأكيده مُغْنيا أصلا من ذكر الفوز وتأكيده.

بقى فى هذه المسألة حديث الخطيب الإسكافى عن (الواو) الذى كان منه – رحمه الله – تحت الآية السابعة من سورة المائدة بعد أن ذكر الآيات التى ذكر فيها الفوز العظيم[1] وافترض السؤال من السائل، ثم أجاب عنه، ومن بينها ما ذكره مما يخص هذا المقام حيث قال: (... وأما إدخال الواو فى قوله: ﴿**وذلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيم**﴾ فى سورة النساء المحذوف أبداً عنه – أى: الذى لم يذكر فى آيته كلمة (أبداً) – فلإدخال الواو فى قرينة الكافر: ﴿**وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِين**﴾ فَأَدْخَل الواو فيه، أى: وذلك لهم الفوز العظيم، وليس كذلك فى الموضع الآخر، إذا قرأت ما قبلها وما بعدها تبين لك ما قلت فاعرفه)[2].

فهو – رحمه الله – يعلل مجيئ (الواو) فى ختام الآية الثالثة عشرة من هذه السورة بعلة التناسق أو التوافق مع ختام الآية التى تلتها – الرابعة عشرة من سورة النساء –، **فذكر فى الأولى** جزاء من يطيع الله ورسوله ثم قيل: ﴿**وذلك هو الفوز العظيم**﴾، وذكر فى الثانية جزاء من يعصيهما ثم قيل: ﴿**ولهم عذاب مهين**﴾، ولا يليق – بالطبع – فى هذا الختام الأخير أن يقال: (له) بغير (واو) لأن (ذلك) فى الختام الأول إشارة إلى النعيم، **أَمَّا (له) فى الختام الثانى** فتشير إلى الذى عصى، والمعنى المقصود فى الآية شِدَّة ترهيبه، بأن يذكر جزاؤه مجملاً: ﴿**يدخله نارا خالدا**

ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ "الحديد: ١٢"، وقوله تعالى: ﴿**رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللّهُ لَهُ رِزْقاً**﴾ "الطلاق: ١١".

[1] الآيات السابقة.

[2] درة التنزيل ص١٠٤ منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، ص٥٥ دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

﴿**فيها**﴾ ثم يضاف إليه لمحة عن أوصافه وتفاصيله: ﴿**ولهم عذاب مهين**﴾ فكان اقتضاء الواو فى هذا الختام مقثفيا للواو التى قبلها على سبيل التوافق كما ذكرت، وهو تَوَافُقُ شَكْلِى فى ظاهر الأمر، لكنه من الناحية الأخرى –الفنية – ذو أثر لا ينكر فى المتلقى الذى تتناسق أصداء النص فى نفسه وتتجاوب تبعاً لتناسق النص ذاته وتجاوب جميع وحداته وإيقاعاته.

فالخطيب – رحمه الله – إذاً قد استمدَّ جوابه هذا –بشأن الواو – من تَأَمُّل السياق ومقتضياته، سواء على مستوى ختام آية الحديد (١٢) أم على مستوى الخواتيم الأخرى التى تشبهه فى سائر الآيات، ومن ثم كان قوله: (إذا قرأت ما قبلها وما بعدها تبين لك ما قلت).

الشاهد الخامس: وأخص به المثانى التى تتردد داخل السورة الواحدة، إذ كانت الشواهد السابقة قد اختصت بالمثانى المتفرقة فى أكثر من سورة، ولهذا النوع شواهد كثيرة فى عدة سور قرآنية فيها التَّكْرَار المعروف فى سورة (القمر) لقوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾، والتَّكْرَار المعروف فى سورة (الرحمن) لقوله: ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ والتَّكْرَار فى سورة (المرسلات) لقوله ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾، والتَّكْرَار المعروف أيضاً فى سورة (الكافرون)، كما أن سورة (الشعراء) تُعَدُّ شاهداً واضحاً أيضاً على هذا اللون، وهى التى سأتخذها فيما يلى نموذجاً أساسياً لتوضيح معالمه وملامحه.

ولقد تَعَرَّض الكرمانى لمثانى هذه السورة فى كتابه (البرهان) من خلال مسألتين[١]:

المسألة الأولى: وفيها يقول:[قوله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ...**﴾ "الشعراء: ٨" إلى آخر الآية مذكور فى ثمانية مواضع:

---

[١] الآيات السابقة.

أولهـــا: فـى محمد (ﷺ)، وإن لـم يتقدم ذكره صـريحاً فقد تقدم كنايـة ووضـوحاً، **والثانيـــة:** فـى قصـة موسـى (٦٧)، ثـم إبـراهيم (١٠٣)، ثـم نـوح (١٢١)، ثـم هود(١٣٩)، ثم صالح (١٥٨) ثم لوط (١٧٤)، ثم شعيب (١٩٠) عليهم السلام[١].

ومن يتأمل هذه المسألة جيداً يمكن أن يخرج بالملحظَيْن التاليَيْن:

الأول: أن الآية التى ذكرها فى بداية كلامه هى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ "الشعراء: ٨" هى ليست وحدها التى كُرِّرت، بلْ لازِمُها فى التَّكْرَار الآية التى بَعْدها مباشرة: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ وقد وردت الآيتان فى مطلع السورة، ثم كررتا بعد ذلك عقب كل من القصص التى ذكرها سبع مرات بالأرقـــام التاليـــة: (٦٧: ٦٨)، (١٠٣: ١٠٤)، (١٢١، ١٢٢)، (١٣٩: ١٤٠)، (١٥٨: ١٥٩)، (١٧٤: ١٧٥)، (١٩٠: ١٩١).

الثـانى: أن الله تعالى قد ذكر فى كل القصص السابقة خَبَر كل نبى ورد فيها مع من أُرْسل إليهم، حيث يقوم بمهمة تبليغهم دعوة الله التى يُعْرِضُون عنها، ويُصِرُّون على إعراضهم، فتكون النهاية هى العقاب الحق الذى يُنْزِلُه الله بهم، ومن ثم يكون هذا التعقيب: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾، **فالآية الأولى:** تَحُضُّ على الاعتبار بمصائر هؤلاء المكذبين[٢]، **والآية الثانية:** تُذَكِّر بصفتين لله تعالى، هما صفتا العزة والرحمة، عزَّته التى تشير إلى قوته وَقُدْرَته على إنزال العقاب، ورحمته التى تشير إلى تَفَضُّله على خلقه بإرسال الرسل وبإمهالهم وعدم تَعَجُّل عقابهم إلا بعد تَبَيُّن فسادهم وإصرارهم.

---

[١] البرهان فى توجيه متشابه القرآن، رقم ٣٥٠، ص١٤٠.

[٢] هذه الآية تتعلق بمصائر المكذبين فى الدنيا، إلا فى قصة إبراهيم، فإنها تَعْقيبٌ على مصيرهم فى الآخرة. يراجع: سورة الشعراء الآيات (٩١: ١٠٢).

أما مجيئ هاتين الآيتين أول مرة فى مطلع السورة، فقد كان تعقيباً على حال رسول الله ﷺ مع قومه[1] والسياق فى ذلك واضح تماما: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾ الآيات من (٣: ٧)، وبعدها مباشرة الآيتان المُعَقِّبتان (٨: ٩).

لكن الغرض من قوله تعالى فى السياق السابق: (إن فى ذلك لآية ...) ليس هو الحضُّ على الاعتبار بالنقِمَ التى يُنْزلها الله تعالى بالمكذبين كما هو الشأن فى القصص المذكورة، بل هو ألحَضُّ على شُكْر النعم والإشارة أيضاً إلى جَحْدها: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾ هذه النعم التى جحدها المشركون ولم يُؤَدُّواَ حقَّها بتوحيد المُنْعم بها واتباع رسوله، ومن ثم كان قوله عقب ذلك: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ...**﴾ أى: إنَّ فى هذه النعم ما يدعوا إلى الشكر وَتَأْدية الحق الواجب، ﴿**... وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ بل كانوا منكرين وجاحدين، ثم تلى ذلك الآية الأخرى التاسعة التى تُنْذرهم بأس الله بعزته وتُذَكرهم أنها مقترنة دائما برحمته، هذا عن المسألة الأولى.

أما **المسألة الثانية** فيقول فيها:[قوله: ﴿**أفلا تتقون ...**﴾ إلى قوله: ﴿**العالمين**﴾ مذكور فى خمسة مواضع: فى قصة نوح (١٠٦: ١٠٩) وهود (١٢٤: ١٢٧)، وصالح (١٤٢: ١٤٥)، ولوط (١٦١: ١٦٤)، وشعيب (١٧٧: ١٨٠) عليهم الصلاة والسلام، ثم كرر: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**﴾ فى قصة نوح (١١٠)، وهود (١٣١)، وصالح (١٥٠)[2].

---

[1] وهذا ما قصده الكرمانى خلال حديثه عن مواضع تكرار الآية الثامنة حين قال: أولها فى (محمد) ... إلخ.

[2] فى النسخة التى بين يدى ٥٠ والصواب هو ١٥٠ كما ذكرت.

فصار ثمانية مواضع، وليس فى قصة النبى ﷺ: ﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ**﴾، لذكرها فى مواضع، وليس فى قصة موسى عليه السلام، لأنه رباه فرعون حيث قال: ﴿**قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً**﴾ (١٨)، ولا فى قصة إبراهيم عليه السلام، لأن أباه فى المخاطبين، حيث يقول: ﴿**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ**﴾ (٧٠) وهو رباه، واستحيا موسى وإبراهيم أن يقولا: ﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ**﴾ وإن كانا مُنَزَّهين من طلب الأجرة][1]

ومن يتأمل أيضاً هذه المسألة يخرج بالتعليقات التالية:

أ- كان كل نبى من هؤلاء الخمسة المَذْكُورين فى بداية المسألة يقول لقومه: ﴿**.. أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ قاله نوح فى الآيات من (١٠٦: ١٠٩)، وقاله هود فى الآيات من (١٢٤: ١٢٧)، وصالح فى الآيات من (١٤٢: ١٤٥)، ولوط فى الآيات من (١٦١: ١٦٤)، وشعيب فى الآيات من (١٧٧: ١٨٠).

ب- **قال الكرمانى:** وليس فى قصة النبى (ﷺ): ﴿**مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ**﴾ لذكرها فى مواضع، وهذا صحيح لمن راجع القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (سبأ ٤٧)، وقوله: ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**﴾ (ص: ٨٦) وغير ذلك من الآيات.

لكن ذلك ليس هو السبب وحده -كما ذكره الكرمانى - أو ليس هو السبب الحقيقى، إنما السبب هو أهداف السورة عموما التى لم تقصد إلى تفصيل أمر الرسول ﷺ مع قومه بقدر ما قصدت إيقافهم على أنباء السابقين ومصارع المكذبين، فالذى يقرأ السورة يَشْعُر بأنها لم تتَطْرق لأمر الرسول ﷺ مع قومه فى

[1] البرهان فى توجيه متشابه القرآن، رقم ٣٥١، ص١٤٠.

مطلعها، إلَّا لتَجْعَله عُنْوانا فقط أو معبرا تَفْرُغ بعده لعرض هذه الأنباء، وهى تَعْرضُها عليهم متتابعة ومُتَلاحقة المشاهد والإيقاعات، كأنما تريد أن تربطهم بها ربطاً لتتلاحق معها أنفاسهم أيضاً، ثم تَنْقطع بَعْد ذلك أو تهدأ لتَستَوْعب الدرس مع آخر نبأ أو مع آخر آية فى السورة، **فالسياق** إذا هو الذى يحدد بناءه الخاص تفصيلاً أو إجمالاً أو على أى نَمَطٍ كان حسب ما تقتضيه أهداف السورة.

ج- قوله رحمه الله: (وليس فى قصة موسى عليه السلام لأنه رَبَّاهُ فرعون ...) إلى آخر المسألة، هو كلام طيب مبارك وموفق جداً، ونظرات ثاقبة حقاً فى ميدان إعجاز القرآن، ولولا أن التداخل بين الأمور لا مَفَرَّ منه فى بعض الأحيان لكان ٱلأَوْلى بهذا الكلام كلامٌ آخر لا يَتَّسع المقام لبيانه[1]، فهذا النص: ﴿**وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ**﴾ أو ما يماثله لم يصدر من موسى تجاه فرعون وقومه أو من إبراهيم تجاه قومه فى أى موضع بالقرآن كله[2] **ويحتاج منى إلى تأمل عميق** لمعرفة سِرِّه، لكنه لا يوجد فيه بين يدى -على أى حال - أَوْجَه مما ذكره الكرمانى، فإن موسى -كما قال - رَبَّاهُ فرعون، والأنبياء أعظم الناس عِرْفَانا بالفضل ولو كان من كافر، وهم أيضاً أَدْرَى الناس بطباع الكفار وما فيها من الفخر والمن والحب والشغف بهما، فلا يليق - والحال كذلك - أن تَصْدَر من موسى هذه المقولة: ﴿**وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ**﴾ لما يَسْتَتْبعُه من الرَّدِّ ٱلفَوْرى وهو: كيف تَتَنَزَّه عن طلب الأجر أو تَدَّعى استغناءك عَنَّا وأنت رُبِّيتَ فينا. بل إن فرعون قد قال له بالفعل: ﴿**أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ**﴾ "الشعراء: ١٨" رغم أن المقولة السابقة لم تَصْدَر من موسى، فما الحال لو صدرت؟!

---

[1] وهو ما سيكون بحول الله فى مبحث قادم حول المثانى ودورها فى ميدان الإعجاز.

[2] ينظر: المعجم المفهرس، مادة (أجر) ص١٦: ١٧.

وكذلك إبراهيم عليه السلام كان يخاطب قومه وفيهم أبوه، ومقام الأبوة وفضل الوالد على ولده أمر معلوم، فَكَأَنَّ إبراهيم تَجَنَّب إعلان التنزُّه عن الأجر أو الاستغناء عن قومه حتى لا يَمَسَّ مقام أبيه أو فضله عليه.

د- **لم يتعرض الكرمانى** – رحمه الله – للسؤال عن هذا النص الوارد فى بداية مسألته من قوله تعالى: ﴿**ألا تتقون**﴾ إلى قوله: ﴿**العالمين**﴾ وهو: لماذا لم يُخَاطِب به موسى فرعون وقومه، ولماذا لم يخاطب به إبراهيم قومه كما حدث ذلك من الأنبياء الخمسة الآخرين؟ **وهذا – والله أعلى وأعلم –** يرجع إلى طبيعة دعوة كل من موسى وإبراهيم، لا من حيث الأصول والأهداف، فإن كل الرسالات ذات أصول وأهداف واحدة، وإنما من حيث بيئة الدعوة ونوع الأمراض والانحرافات التى تَشِيعُ فيها، مما يجعل لكل دعوة طبيعتها الخاصة من حيث الجوانب التى تركز عليها وَالْأَوْلَويات التى تتقدم على غيرها، ومن حيث أسلوب المواجهة أيضاً مع جماعة الباطل وقواه فى هذه البيئة حسب مدى سيطرتها عليها أو درجة تجاوبها مع الدعوة أو نوع الخطر الذى يتوقع منها وهكذا.

لذا فإن قصة موسى لم تبدأ بهذا الخطاب الذى بدأَ به الأنبياء الخمسة مع أقوامهم، وإنما بدأت بما هو أنسب لها، وبما هو ألصق بظروف دعوة موسى: ﴿**وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ**﴾ "الآيات من ١٠: ١٤".

فظروف دعوة موسى كانت شديدة التعقيد من حيث كانت مُوَاجَهةً مع حاكم جبار يُعْبِّد الناس له، ومواجهة مع مَلَئِه الذين استخفَّهم فأطاعوه، مُوَاجَهةً معه ومعهم لهدايتهم من ناحية، ولاستنقاذ بنى إسرائيل من بين أيديهم من ناحية أخرى، **لذا لم يبدأ موسى** فى مطلع قصته بتوجيه دعوة كما بدأ غيره من الأنبياء الخمسة، وإنما

بدأ بِتَحَسُّسِ طريقه والحذر من أخطاره وطلب العون على سلوكه، وكان كل نبى من هؤلاء كان هو الذى يبدأ بتوجيه قومه إلى التقوى: ﴿**ألا تتقون**﴾، **أما فى دعوة موسى** فإن الذى بدأ هذا التوجيه هو الله سبحانه: ﴿**أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ**﴾ ، وهكذا كان لدعوة موسى أسلوبها الخاص الذى رسم بدايتها ورسم أيضاً بلا شك مراحلها.

وكذلك الشأن فى دعوة إبراهيم، فمن يتأملها ويتتبعها يجد أن لها ظروفها الخاصة أيضاً منذ مرحلة المواجهة الأولى مع النمرود وقومه، حتى آخر مراحلها، فكانت حماقة التعبد للأصنام من أفتك الأمراض التى انتشرت فى بيئة هذه الدعوة، ومن أسوأ العقبات التى واجهتها، لذا كان هذا البدء أيضاً فى قصة إبراهيم: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ "الآيات من ٦٩: ٧٤".

فقد بدأت القصة بمشهد من أعنف مشاهدها، وهو هذه المواجهة المباشرة مع تلك الحماقة الخطيرة، وعلى قدر خطرها هذا أيضاً كان قدر الحسم فى مواجهتها، كما يتبين من سياق الآيات السابقة وما تلاها من آيات أخرى، **وبوجه عام**: فإن القصص القرآنى لا يتفاوت بعضه عن بعض، فى جملته أو فى تفاصيله أو فى طريقة عرضه إلا بناء على ضابطين دقيقين:

أولهما: ما سبق ذكره كثيراً عَمَّا تَتَمَيز به كل سورة من أهداف مخصوصة تركز عليها، وذلك هو الذى يحدد نوع المادة التى تَنْتَقيها وَيُحَدِّد طريقتها فى معالجتها، وهو – بالتالى– السر فى تنوع القصص القرآنى واختلاف أساليبه، بل هو السر أيضاً فى تنوع القصة الواحدة حين تُعْرض فى أكثر من سورة.

ثانيهما: ما ذَكَرْتُه أيضاً منذ قليل عما تتميز به كل دعوة من سمات خاصة ترجع إلى طبيعة ظروفها ومسؤلياتها، وهو ما يؤثر بالتالى فى تَفَرُّد قصتها بسمات

خاصة تميزها جملة وتفصيلاً عن سائر القصص الأخرى، مهما كان من عناصر مشتركة – بالطبع– بين هذه القصص أو بين دعوات جميع الأنبياء فى القرآن.

المطلب الثالث: المثانى فى ضوء التفسير الموضوعى:

تمهيد:

سأحاول فى هذا المطلب تحديد أبرز ملامح المثانى من خلال صلتها بجانب محدد آخر، هو جانب الصلات والعلائق التى تربط بعضها ببعض فى القرآن كله، وذلك ما يدخل مباشرة فى هذا اللون من ألوان التفسير المعروف بالتفسير الموضوعى، الذى يعتمد على تَقَصِّى كل ما ورد أو تَفَرَّق عن الموضوع الواحد فى جميع القرآن (وإن اختلفت عباراتها وتعددت أماكنها مع الكشف عن أطراف ذلك الموضوع حتى يستوعب المفسر جميع نواحيه ويلمَّ بكل أطرافه وإن أَعْوَزَه ذلك لجأ إلى التَّعَرُّض لبعض الأحاديث المناسبة للمقام لتزيدها إيضاحاً وبيانا)[1] أى دراسته دراسة متكاملة.

ولاشك أن الفارق كبير بين هذا اللون واللون السابق – التفسير التحليلى – لكن هذا الثانى – رغم هذا الفارق – يعد كَسَابِقِه نتيجة حتمية أيضاً من نتائج نظام السور القرآنية، هذا النظام الذى لا يعنمد على تناول السورة لموضوع بعينه، وإنما يعتمد على تناولها لمادة بعينها وإن اتصلت بأكثر من موضوع، وذلك هو ما ينتج عنه بالتالى تَفَرُّق الموضوع الواحد –غالباً – فى أكثر من سورة، وما ينتج عنه فى الوقت نفسه كثير من نماذج المثانى القرآنية.

وإذا كان المطلب السابق قد كشف – أو أتاح– عن بعض آفاق المثانى من خلال ربطها بأهداف السور وسياقاتها، فَأَرْجو أن يَكْشف هذا المطلب أو يُتيح ذلك

---

[1] التفسير الموضوعى للقرآن الكريم للدكتور أحمد السيد الكومى، الدكتور محمد أحمد يوسف القاسم ص١٦،١٧ مطبعة: دار البيان بمصر، بدون.

– المزيد من هذا الكشف – عن طريق تناولها من زاوية أخرى، وهى زاوية الدراسة الموضوعية التى يُرَكِّزُ المفسر نظره فيها على كل طائفة من المثانى ذات المحور الواحد أو الموضوع الواحد، فيستقصى كل أفرادها أو وحداتها، وكل ما يمت لها بصلة فى القرآن لدراستها دراسة شاملة متكاملة، من شأنها أَلَّا تُقَدم فقط وَجْهاً جديداً من وجوه المثانى القرآنية، بل تُقَدم ثماراً جديدة أيضاً فى فَهْمِ مقاصد القرآن وأسراره التى لا يمكن تقديمها خارج إطار هذا النوع من الدراسة.

ومن ثم فإن الشواهد فى هذا المطلب سَتَعْتمد على أثْنَين آخرين من العلماء، تَمَيَّز كل منهما بدقة النظر ونفاذ البصيرة فى فَهْم كتاب الله، وهما الإمام ابن تيمية ت(٧٢٨هـ) وتلميذه الإمام ابن القيم ت٧٥١هـ، لأن كلا منهما إذا صَوَّب فِكْرَه إلى أى معنى أو موضوع فى القرآن تَوَارِدَتْ إليه جميع المعانى التى تُكمله أو تتصل به فى جميع آياته، مهما كانت صياغتها ومهما كانت درجة ظهورها أو خفائها إلَّا ما ندر من عَجْزٍ أو قُصُور لا يفارِقُ طبيعة البشر.

وقد تخيرت هذه الشواهد من تراثهما التفسيرى:

الشاهد الأول:

فقد تَطَرَّق ابن تيمية – رحمه الله – فى كتابه: "الفرقان بين الحق والباطل" إلى مسألة اعتقاد النصارى فى صَلْب المسيح وأنهم لم يتفقوا على ذلك، وأنه ليس عندهم علم يستندون إليه فيما اعتقدوه كما قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ**﴾ "النساء١٥٧".

وكان لتأمله لهذا النص القرآنى أثره الوافر فى إيراد طائفة كبير من المثانى المتصلة به فى جميع القرآن على ذهنه والتى عبر عنها بقوله: [وقوله تعالى فى هذه – أى سورة النساء – ﴿**مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ**﴾ هو ذَمّ لهم على اتباع الظن بلا علم، وكذلك قوله: ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى**﴾

"النجم: ٢٣" وكذلك قوله: ﴿**وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً**﴾ "النجم: ٢٨"، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ**﴾ "يونس: ٦٦" وقوله: ﴿**أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**﴾ "يونس: ٣٥-٣٦" فهذه عدة مواضع يذم الله فيها الذين لا يتبعون إلا الظن، وكذلك قوله: ﴿**قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ...**﴾ "الأنعام: ١٤٨-١٤٩" مطالبة بالعلم وذم لمن يتبع الظن وما عنده علم ...][1].

وإلى جانب ذلك أيضاً أدار -رحمه الله - فى بضع صفحات[2] حواراً رائعاً بين هذا الموضوع وبين معنى الظن فى "أصول الفقه" وذلك حين يجتهد الفقيه ويقارن بين الأدلة، ثم يميل إلى ما يظنه الأرجح منها بناء على ضوابط معينة، فهو حينئذٍ يكون متبعاً للعلم لا متبعاً للظن، والقرآن -كما قال ابن تيمية- إنما ذمَّ الذين ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ**﴾ فعندهم ظن مجرد لا عِلْمَ معه وهم يتبعونه[3].

وقد سَلَّمته هذه النتيجة التى انتهى إليها إلى طائفة أخرى من المثانى، التى وصلها بموضوعه وَوَضَّحه بها، وذلك حيث قال عن هذا الترجيح المبنى على العلم: [وهو اتباع الأحسن، كما قال: ﴿**فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا**﴾ "الأعراف: ١٤٥" وقال: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾ "الزمر: ١٨" وقال: ﴿**وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم**﴾ "الزمر: ٥٥" فإذا كان أحد الدليلين

---

[1] الفرقان بين الحق والباطل، للإمام شيخ الإسلام ابن تيمية ص٧٢ طبع: مكتبة دار البيان، دمشق ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

[2] السابق: ٧٢: ٧٩.

[3] ينظر السابق: ٧٥.

هو الأرجح فاتباعه هو الأحسن، وهذا معلوم][1]. إن معنى "الأحسن" فى هذه النصوص –والله أعلم – هو أفضل ما يُقَرب العبد من ربه، فيتلقى منه شرعه، ثم يستقيم فى فهمه ليعبد الله به على أحسن وجوهه .. لا يَحْرِفه ولا يَلْوِيه إلى الأسوأ، بل يوجهه إلى الأحسن، وهذا نوع من الاجتهاد والترجيح، لعله هو الذى دفع ابن تيمية وَحَفَزَه لأن يربط ببصيرته النافذة بين هذه الطائفة الأخيرة من المثانى والطائفة التى قبلها.

الشاهد الثانى:

تحدث ابن القيم عن (الدعاء) فى القرآن، وأنه تارة يراد به (العبادة) كما فى قوله تعالى: ﴿**فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ "غافر: ١٤" أى: اعبدوه وَوَحِّدوه وَأَخْلِصوا عبادته، لا تعبدوا معه غيره، وتارة يراد به (المسألة) أى التوجه إلى الله طلباً لنفع أو دفعاً لضر، وهو المقصود فى قول زكريا عليه السلام : ﴿**وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً**﴾ "مريم: ٤"، وتارة يراد به مجموعهما، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَإِذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعَانِ**﴾ "البقرة: ١٨٦" فقد قيل فى معنى الإجابة هنا: أعطيه إذا سألنى، وقيل: أثيبه إذا عبدنى واللفظ يتسع للمعنيين جميعاً[2].

ووَضَّح – رحمه الله – أن نَوْعَى الدعاء هذين متلازمان، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعى، وطلب كشف ما يضره، أو دفعه، ومن يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقاً، والمعبود لابد أن يكون مالكاً للنفع والضر.

ثم استدل عقب ذلك على هذا التلازم بطائفة من المثانى القرآنية حيث قال: ".... ولهذا أنكر الله تعالى على من عَبَد من دونه ما لا يملك ضراً ولا نفعاً، وذلك

---

[1] الفرقان بين الحق والباطل ص٧٥.

[2] ينظر: التفسير القيم لابن القيم ص٢٤٠ وما بعدها.

كثير فى القرآن، كقوله تعالى: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ**﴾ "يونس: ١٨"، وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ**﴾ "يونس١٠٦" وقوله تعالى: ﴿**قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ "المائده: ٧٦" وقوله تعالى: ﴿**قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ**﴾ "الأنبياء: ٦٦-٦٧" وقوله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ**﴾ "الشعراء: ٦٩-٧٣"، وقوله تعالى: ﴿**وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً**﴾ "الفرقان: ٤" وقال تعالى: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً**﴾ "الفرقان: ٥٥" أ.هـ[1].

ومن ينظر ما قاله ابن القيم يجد أنه يُرَكِّزُ على فكرة التلازم بين نوعى الدعاء المذكورين، حيث إن أهم مظاهر العبادة التوجه والتضرع إلى الله وحده خوفاً ورجاء، وذلك يتضمن سؤاله بلاشك، كما أن دعاءه طلبا لما ينفع ودفعاً لما يضر يتضمن التعبد له كذلك، لأنه لا يملك النفع والضر إلا من كان هو المعبود حقا.

والإنسان – بطبعه– قصير النظر، سريع فى طلب المنافع الظاهرة واتقاء المضار المباشرة، ومن ثم فإنه ألصق غالباً بالنوع الثانى من الدعاء (دعاء المسألة) سواء فى تَوَجُّهه إلى الإله الواحد أو فى توجهه –حال ضلاله – إلى آلهة غيره.

من هنا، فإن الله تعالى قد راعى هذا الطبع الإنسانى الذى يَعْلَمه، فَأَكْثَر فى كتابه من المثانى المتعلقة بهذا النوع الثانى من الدعاء، ليُعَرِّى –من جهة – ضلال الإنسان حين يتوجه إلى غير خالقه طلباً للنفع أو دفعاً للضر، وَليَثْبت له –

[1] التفسير القيم ص٢٤٠.

من جهة أخرى – أن هذه الآلهة التى يتوجه إليها من دون الله ليست بآلهة، ولا يستحق أى منها أن يكون معبوداً، بدليل أنه لا يجيب من يدعوه ولا يملك له ولا لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشوراً.

وتحدَّث ابن القيم أيضاً عن قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ "الأنفال: ٦٤" فَوَضَّح أولاً أن معناه: الله وحده كافيك وكافى أتباعك، فلا يحتاجون معه إلى أحد[1]، **ثم بَيَّن** أن هذه الآية فيها عدة تقديرات، مجملها: ١– أن تكون الواو عاطفة لـ (مَنِ) على الكاف المجرورة، فيكون المعنى: الله حسبك وحسب من اتبعك. ٢– أن تقدر (حَسْبُك) بالفعل المضارع (يكفيك) فيكون المعنى: الله يكفيك ويكفى من اتبعك، وتكون (مَنِ) فى محل نصب مفعول به، **وصرح ابن القيم** بأن هذا الوجه هو أصح التقديرات. ٣– أن تكون (مَنِ) فى موضع رفع بالابتداء، ويكون خبرها محذوفاً مقدراً، أى: ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله.

٤– أن تكون (مَنِ) فى موضع رفع عطفا على اسم الله، ويكون المعنى: حسبك الله وأتباعك[2].

وأشار – رحمه الله – إلى أن هذا التقدير الأخير خطأ من جهة المعنى، وإن كان مستقيما من جهة النحو، ثم وَضَّح بعد ذلك أن حَمْل الآية عليه خَطَأٌ مَحْض، مُسْتَنداً فى ذلك إلى مَثَانٍ أخرى، أو مُتَحَوِّلاً بمَوْضُوع هذا التقدير إلى موضوع بحثه من خلال القرآن كله، فقال:

---

[1] السابق ص٢٩٢.

[2] ينظر أيضاً فى هذه التقديرات الأربعة تفسير أبى السعود ٢/ ٣٧٣ طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

هذا –وإن قال به بعض الناس – فهو خَطَأٌ مَحْض لا يجوز حمل الآية عليه، فإن الحسب والكفاية لله وحده، كالتوكل والتقوى والعبادة. قال الله تعالى: ﴿**وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ**﴾ "الأنفال: ٦٢"، ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له – أى الرسول ﷺ بنصره وبعباده.

وأثنى **الله سبحانه** على أهل التوحيد والتوكل من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ "آل عمران: ١٧٣" ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، فإذا كان هذا هو قولهم ومدح الرب تعالى لهم بذلك، فكيف يقول لرسوله: الله وأتباعك حسبك، وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه؟ فكيف يشرك الله بينهم وبينه فى حسب رسوله؟ – أى: كيف يجمع الله بين المؤمنين وبينه سبحانه فى قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ – هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ**﴾ "التوبة: ٥٩".

وتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾ "الحشر: ٧" وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالِصَ حَقَّه، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا إِلَىَ اللّهِ رَاغِبُوْنَ**﴾ ولم يقل: وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى: ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ**﴾ "الشرح: ٧–٨"، فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود لله وحده، والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى. أ.هـ[1].

---

[1] التفسير القيم ص٢٩٢: ٢٩٣.

ومن ينظر هذا الكلام يمكنه القول بما يلى:

١- أن الحجة الأساسية التى ركز عليها ابن القيم فى إبطاله للتقدير الرابع، هى أن تعبير حسبك أو حسبى إذا ارتبط بالله تعالى فى مجال الإعانة أو الاستعانة أو الإغاثة أو الاستغاثة أو ما شابه ذلك، فلا يجوز أن يشركه فيه أحد مثله مثل التوكل والتقوى والعبادة، فكل ذلك لا يكون إلا لله وحده.

٢- أنه - رحمه الله - لجأ إلى تَتَبُّع مثانى هذا التعبير فى القرآن تَأْييداً لحُجَّته السابقة، فكانت هذه المثانى الثلاث التى[١] تدبرها واستخرج من سياقها ما يؤيد هذه الحجة.

٣- أن أوثق هذه المثانى صلة بحجيته، هى تلك التى اقترن فيها هذا التعبير بالتوكل[٢] لأن التوكل يعنى الاعتماد التام على الوكيل، وهذا الاعتماد التام فرع - فى الوقت نفسه - عن اعتقاد الكفاية التامة فيه.

والحق أن هذا التعبير قد تَرَدَّد فى كتاب الله سبع مرات، اقترن بالتوكل فى أربع منها[٣]، وهذا مما يُقَوِّى حجة ابن القيم، وإن لم يكن أثبت من هذه الأربع إلا مرة واحدة، **أما الثلاثة الأخر فهى كالتالى:** قوله تعالى: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ "التوبة: ١٢٩"، قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ "الزمر: ٣٨"، قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ "الطلاق: ٣".

---

[١] التى ذكرها من سورة الأنفال ٨، وآل عمران ١٧٣، والتوبة ٥٩.

[٢] وذلك فى آخر آية آل عمران: ﴿**وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾.

[٣] ينظر: المعجم المفهرس ص٢٤٦.

٤- أن مثانى هذا الشاهد لا تعبر بذاتها تعبيراً مباشراً عن مضمون حجة ابن القيم المذكورة، وإنما هو الذى استنبط هذا المضمون استنباطا من واقع تَدَبُّره لهذه المثانى ولكل ما يصل بها فى القرآن.

الشاهد الثالث:

تَطَرَّق الإمام ابن تيمية فى كتابه: (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) إلى الحديث عن صنفين من الأصناف الثلاثة للناس المذكورين فى سياق آيات سورة الواقعة، وهما: السابقون المقربون، وأصحاب اليمين، وذلك -منه - بمناسبة بيانه لدرجات الأولياء، حيث ذكر أن أولياء الله هم المؤمنون المتقون، وأنه بحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى كان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون فى ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم فى الإيمان والتقوى[١].

وأراد أن يُوضِّح أمر هذه الدرجات من خلال القرآن نفسه، فذكر أن أولياء الله على طبقتين: سابقون مقربون، وأصحاب يمين مقتصدون .. ثم أخذ يجتهد فى بيان ملامح هاتين الطبقتين وتمييز الفروق بينهما بوسيلتين:

الأولى: هى تَتَبُّع أو إحصاء مواضع ترددها فى جميع القرآن.

الثانيـــة: هى تدبر هذه المواضع والمقارنة بين سياقاتهما للوصول إلى تصور متكامل لملامح هاتين الطبقتين.

أما مواضع ترددهما - كما ذكرهما ابن تيمية - فهى كالتالى:

١- فى سورة الواقعة، **مـرة** فى سياق أحداث يوم القيامة: ﴿**إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ**

[١] ينظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية ص٤٨ وما بعدها، تحقيق: محمود عبد الوهاب فايد، طبع: دار الفكر.

الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ "الآيات من ٤ :١٤"، **ومرة** فى سياق الموت والاحتضار: ﴿**فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ**﴾ "الآيات من ٨٣: ٩٤".

٢- فى سورة الإنسان، فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً**﴾ "الآيتان ٥ :٦".

٣- فى سورة المطففين، فى قوله تعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ**﴾ "الآيات من ١٨: ٢٨".

٤- فى سورة فاطر، فى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**﴾ "الآيتان ٣٢: ٣٣".

وأما عن دراسته – رحمه الله – لهذه النصوص وتعليقاته عليها فيمكن إجمالها أيضاً فيما يلى:

١- ﴿**أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ**﴾ فى سورة الواقعة هم (الأبرار) فى سورتى الإنسان والمطففين، وهم (المقتصدون) فى سورة فاطر، كما أن (المقربين) فى سورتى الواقعة والمطففين هم (عباد الله) فى سورة الإنسان، وهم (السابقون بالخيرات) فى سورة فاطر.

٢-الجزاء من جنس العمل فى الخير والشر ... ومن هنا يتبين الفرق بين الطبقتين فى النصوص السابقة.

ووضح ابن تيمية ذلك فى تعليقه على الآيات المذكورة سابقاً من سورة المطففين فقال: وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- وغيره من السلف قالوا: يُمْزَجُ لأصحاب اليمين مزجاً، ويشرب بها المقربون صرفا، وهو كما قالوا، فإنه تعالى قال: ﴿**يَشْرَبُ بِهَا**﴾ ولم يقل: يشرب منها، لأنه ضَمَّن قوله ﴿**يَشْرَبُ**﴾ معنى يَرْوَى، فإن الشارب قد يشرب ولا يروى، فإذا قيل: يشربون منها لم يدل على الرى، فإذا قيل: يشربون بها كان المعنى يَرْوَوْن بها، فالمقربون يروون بها فلا يحتاجون معها إلى ما دونها، فلهذا يشربون منها صرفا ... بخلاف أصحاب اليمين فإنها مُزجَت لهم مزجاً، وهو كما قال تعالى فى سورة الإنسان: ﴿**كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً**﴾ أ.هـ[1].

ومن المعلوم أن هذا التعبير قد تكرر فى سورتى المطففين والإنسان ... فكأن هذا التَّكْرَار مثناة أخرى مقصودة تُلْفتنا إلى هذا التعبير وإسهامه فى إبراز خصوصيات المقربين.

٣- تزداد ملامح هاتين الطبقتين وضوحاً من ربطهما بحديث الأولياء المشهور، وفى ذلك يقول ابن تيمية: وأولياء الله تعالى على نوعين: مقربون وأصحاب يمين كما تقدم، وقد ذكر النبى ﷺ القسمين فى حديث الأولياء فقال: [يقول الله تعالى: (من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة، وما تقرب إلىَّ عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا

---

[1] الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٥١: ٥٢.

أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها][1].

فالأبرار أصحاب اليمين ٱلْمُتَقَرِّبون إليه بالفرائض، يفعلون ما أوجب الله عليهم ويتركون ما حرم الله عليهم، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ولا الكف عن فضول المباحات.

وأما السابقون ٱلْمُقَرِّبون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، ففعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا بجميع ما يقدرون عليه من محبوباته أحبهم الرب حُبًّا تاما، كما قال تعالى: (ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه) يعنى الحب المطلق ... فهؤلاء المقربون صارت المباحات فى حقهم طاعات، يتقربون بها إلى الله عز وجل، فكانت أعمالهم كلها عبادات لله، فشربوا صرفاً كما عملوا له صرفاً، **والمقتصدون** كان فى أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم فلا يعاقبون عليه ولا يثابون عليه، فلم يشربوا صرفا، بل مُزِج لهم من شراب المقربين بحسب ما مَزَجُوه فى الدنيا. أ.هـ[2].

وهو -رحمه الله - بهذا الربط العميق - فى آخر كلامه السابق- بين جزاء المقربين والمقتصدين كما جاء فى القرآن وبين واقع أعمالهم فى الدنيا يُلْفتُ الأنظار إلى هذه اللمحة الرائعة التى أفاض الله بها عليه، فالذين شربوا صرفا فى الآخرة كانت أعمالهم كلها صرفا لله تعالى، فلا يخلو عمل من أعمالهم من نية التوجه إلى الله ﷻ وإتيانه وفق ما يرضيه، سواء كان واجباً أو مستحباً أو مباحاً، وأما الذين شربوا مزجاً فى الآخرة فكانت أعمالهم مزجاً أيضاً فى الدنيا، يأتون

---

[1] الحديث: أخرجه البخارى فى كتاب: الرقاق باب: التواضع. فتح البارى ١١/ ٣٤٨: ٣٤٩ رقم ٦٥٠٢.

[2] الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٥٣: ٥٤.

بالواجبات ويتركون المحرمات ولا يَتَقَيَّدُون بالمندوبات أو فضول المباحات، فليست أعمالهم – كأعمال الطبقة الأولى – كلها عبادات.

٤– الأصناف الثلاثة المذكورون فى سورة فاطر –خاصة– هم أمة محمد ﷺ، أما فى بقية السور فإنه يدخل فيهم جميع الأمم مؤمنهم وكافرهم ... وذلك لأن آية سورة فاطر تقول: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** ...﴾ وفى ذلك يقول ابن تيمية:

وأمة محمد ﷺ هم الذين أورثوا الكتاب بعد الأمم المتقدمة، وليس ذلك مختصاً بحفاظ القرآن، بل كل من آمن بالقرآن فهو من هؤلاء، وقسمهم إلى ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق – بخلاف الآيات التى فى الواقعة والمطففين والانفطار – يقصد قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ "الآيتان: ١٣–١٤" - فإنه دخل فيها جميع الأمم المتقدمة كافرهم ومؤمنهم، وهذا التقسيم لأمة محمد ﷺ، فالظالم لنفسه أصحاب الذنوب ٱلمُصرُّون عليها، والمقتصد المؤدى للفرائض المجتنب للمحارم، والسابق للخيرات هو المؤدى للفرائض والنوافل كما فى تلك الآيات، ومن تاب من ذنبه أى ذنب كان توبة صحيحة لم يخرج بذلك عن السابقين والمقتصدين ... أ.هـ[1].

فالظالمون لأنفسهم فى سورة فاطر ليسوا إذاً هم أصحاب الشمال المذكورين فى الآيات الأخرى، بل هم مؤمنون مذنبون ... وإذا تابوا عن ذنوبهم لم يخرجوا بذلك عن دائرة المقتصدين والسابقين، بل يكونون بنص القرآن من (المتقين) ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[2].

---

[1] الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٥٧ : ٥٨.

[2] يراجع الآيات (١٣٣: ١٣٦) من سورة آل عمران.

ومن يتأمل هذا الشاهد يجد أنه يتضمن نوعاً من المثانى التى تتردد بالمعانى أو المدلولات، وليس بالصيغ أو التعبيرات المميزة كما كان الشأن فى كثير من الشواهد التى مرت.

ومن يقارن بين هذا الشاهد والذى قبله يجد أن هذا الشاهد - محل الكلام – قد تَضَمَّن نوعا من المثانى ذات المعانى الظاهرة فى صيغ غير ظاهرة أو محددة، وأن الشاهد الذى قبله – على عكسه – قد تضمن نوعا من المثانى ذات الصيغ الظاهرة والمعانى الخفية أو غير المباشرة.

خاتمة البحث

الحمد لله أَوَّلاً وآخراً، والصلاة والسلام على النبى المختار، وأصحابه الأخيار صلاة وسلاماً دائمين بدوام الليل والنهار ... وبعد:

ففى خاتمة هذا البحث أحمد الله وأشكره على عظيم منته وفيض كرمه من الانتهاء منه، ثم أُسجِّل بين يدى القارئ الكريم أهم النتائج التى توصلت إليها، وتتمثل فيما يأتى:

١- إن كلمة (المثانى) التى وردت فى كتاب الله مرتين: إحداهما صفة لهذا الكتاب، والأخرى صفة لفاتحته ترتبط بالإعادة والتكرير أياً كان هذا التَّكْرير مرة واحدة أو مرتين أو أكثر، فالشىء الذى (يُثَنَّى) أى: الذى يُكَرَّر، وليس الذى يكون اثنين فقط، وهذا المعنى الأخير مرتبط بالتكرير أيضاً، لأن الثانى هو الذى يأتى بعد الأول، وهذا نوع من التكرير، لأنه مجيئ بعد مجيئ.

٢- إن وصف القرآن بأنه (مَثَانٍ) معناه: أن التكرير ظاهرة واضحة فى كثير من مدلولاته وتوجيهاته وقصصه وتعبيراته الَّتى تَرِد فيه بطُرُق وأساليب متنوعة.

٣- إن وصف الفاتحة بأنها (مَثَانٍ) لأنها تُرَدَّد كثيراً فى حياة المؤمن وصلواته، ولأن أهدافها أيضاً ومدلولاتها -حسب اجتهادى المتواضع - تُرَدَّد وَتُفَصَّل فى الكتاب كله، نظراً لأنها الأم التى تنطوى على مُجْمَل أسسه وأهدافه.

٤- إنه لا تَعَارُض بين إطلاق هذا الوصف على الكتاب كله مرة، وعلى طائفة منه مرة أخرى، بل تَوَاصُلٌ وتكامُلٌ.

٥- إن الذين صَنَّفُوا فى هذه العلوم والدراسات قد تَطَرَّقوا لهذه الظاهرة بالفعل، وإن كان ذلك منهم تحت اسم (المتشابه) أو (الآيات المشتبهات) أو (المتشابه اللفظى) دُونَ الرَّبط صراحة بين مُصَنَّفاتِهِم فى ذلك وهذه التسمية القرآنية، ودون التفكير فى اتخاذها مُصْطَلَحاً متميزاً يُطْلِقونه على هذه المصنفات.

٦- إن السبب الأهم فى ارتباطى بالتسمية القرآنية هو أن هذا المصطلح هو الأقدر على التعبير الحقيقى عن واقع الظاهرة التى يدل عليها فى القرآن تعبيراً يشهد بِتَمَيُّزها أو تَفَرُّدها مما يستدعى تمييزها باصطلاح خاص يدل عليها.

٧- إن مصطلح المتشابه لا يُغْنى أيضاً عن مصطلح المثانى، لأنه يدل بنفس لفظه على التَّكْرَار، كما أنه يثير نوعاً من الخلط مع المتشابه الآخر الذى يقابل المحكم، والفرق بين النوعين بعيد، حيث يتعلق أحدهما بالآيات المتماثلة أو المتقاربة فى صيغها ومدلولاتها، بينما يتعلق الثانى بالآيات الملتبسة أو التى يخفى معناها على بعض الناس.

٨- إن نظام السورة القرآنية هو سر هذه الظاهرة ومَنْبعها، لأن هذا النظام ينطلق من مهمة القرآن الكبرى، وهى هداية الإنسان وتغيير حياته كُلِّيا إلى الوضع الذى يوافق منهج الله تعالى، لذا كان نظام السور القرآنية يقوم على الانتقاء أى التركيز على زوايا بعينها فى هذه الأهداف دون غيرها أو الإجمال فى بعضها والتفصيل فى بعضها الآخر، ولم يقم نظام السورة على الاستقصاء.

٩- هناك فروق دقيقة بين الصيغ المتشابهة أو المتكررة، تظهر بِرَدِّ كل صيغة إلى سياقها وربطها أيضاً بأهداف سورتها، وأيضاً بدراسة أهداف السورة العامة، ثم دراسة سياقها المعبر عنها دراسَةً تفْصِيليَّة تؤدى إلى معرفة الداعى إلى تكرير توجيهٍ أو تعبيرٍ معينٍ بنفس لفظه الذى ورد به فى سورة أخرى أو داخل السورة نفسها.

وفى الختام أيضاً أقول:

١- ينبغى إعادة النظر فى بعض الموضوعات المتوارثة فى جميع المجالات ومنها التَّكْرَار.

٢- ينبغى على البادئين - مثلى - خُوْض غِمَار المسائل الشَّائكة وٱلْمُشْكلة أيًّا كان انتماؤها العلمى، ودراستها دراسة مستفيضة آنية واعية وصولاً إلى الحق والصواب فيما يتعلق بالقرآن الكريم.

٣- إن القصد من وراء هذا البحث هو أن يكون مُجَرَّد مُحَاوَلَة تُوَضِّح هذا الواقع أو تَقْتَرِبُ منه، ولَوْ صَحَّ أن يكون تفسيرا قريبا لكلمةٍ واحدة من آية واحدة فى كتاب الله لكَفَى وأرْضَى.

وأخـيراً: أحمد الله سبحانه وتعالى أن هدانى إلى اختيار موضوع هذا البحث فما كان لى من علم به، كما أحمده أن وفقنى وأعاننى على إتمامه، فإليه وَحَدَه يرجع الفضل كله.

ولا فضل لى فى كل ذاك وإنما ∴ من الله كل الفضل بدءًا ومنتهى

وأسأله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يجعله فى ميزان حسناتى يوم القيامة إنه على كل شىء قدير وبالإجابة جدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. اللهم آمين.

الفقير إلى عفو وغفران الرب الجليل
دكتور/ عبد الرحمن محمد عبد المتعال

أهم المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، للعلامة أبى السعود طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢- الإتقان فى علوم القرآن، لجلال الدين السيوطى. طبع: دار عالم المعرفة.

٣- البحر المحيط، لأبى حيان. طبع: دار الفكر.

٤- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن على الشوكانى ت ١٢٥٠هـ. مكتبة: ابن تيمية القاهرة.

٥- البرهان فى توجيه متشابه القرآن، لمحمود بن حمزه الكرمانى، طبع: دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٦ - ١٩٨٦م.

٦- البرهان فى علوم القرآن، لبدر الدين الزركشى، تحقيق: د/ زكى محمد أبو سريع، طبع: دار الحضارة للنشر والتوزيع.

٧- البلاغة الواضحة، لعلى الجارم ومصطفى أمين. طبع: دار المعارف. ١٣٨٩هـ.

٨- البيان والتبيين، لأبى عمرو الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، طبع: الخانجى القاهرة.

٩- التفسير القيم لابن قيم الجوزية، جمع: محمد أويس الندوى. تحقيق: محمد حامد الفقى، طبع: دار الكتب العلمية بيروت.

١٠- التفسير الكبير، للعلامة فخر الدين الرازى طبع: دار الغد العربى.

١١- التفسير الموضوعى للقرآن الكريم، للأستاذ الدكتور/ أحمد السيد الكومى، الأستاذ الدكتور/ محمد أحمد يوسف القاسم. مطبعة: دار البيان القاهرة.

١٢- التكرير بين التأثير والمثير، للدكتور عز الدين السيد. طبع: دار الطباعة

المحمدية.
١٣- الجامع لأحكام القرآن، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى. طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
١٤- الدرر الكامنة، لابن حجر، حيدرآباد الهند ط١ ١٩٤٨م.
١٥- السنن الكبرى للبيهقى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، نشر: مكتبة الباز مكة المكرمة ١٤١٤- ١٩٩٤م.
١٦- الصحاح، لإسماعيل بن حماد الجوهرى، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، طبع: دار الكتاب العربى.
١٧- الفرقان بين الحق والباطل، لابن تيمية. طبع: مكتبة دار البيان دمشق.
١٨- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية، تحقيق: محمود عبد الوهاب فايد، طبع: دار الفكر.
١٩- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى ٤٦٧- ٥٣٨هـ. دار عالم المعرفة.
٢٠- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد، طبع: مصطفى الحلبى.
٢١- المعجزة الكبرى، للشيخ محمد أبو زهرة. دار الفكر العربى مصر ١٩٧٧م.
٢٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقى، طبع: دار الحديث القاهرة.
٢٣- الوافى بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ت ٧٦٤هـ طبع: بيروت.

٢٤- تاج العروس، لمحمد مرتضى الزبيدى طبع: دار مكتبة الحياة بيروت.
٢٥- تأويل مشكل القرآن، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، طبع: دار التراث بالقاهرة.
٢٦- تفسير القرآن العظيم، للإمام ابن كثير. نشر: مكتبة التراث الإسلامى.
٢٧- تنزيه القرآن عن المطاعن، للقاضى عبد الجبار. طبع: دار النهضة الحديثة بيروت.
٢٨- جامع البيان عن تأويل آى القرآن، للإمام ابن جرير الطبرى ت ٣١٠هـ طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٩- خلق الإنسان بين الطب والقرآن، لمحمد على البار، طبع: الدار السعودية.
٣٠- دراسات قرآنية، لمحمد قطب. طبع: دار الشروق ٤٠٢- ١٩٨٢م ط ٣.
٣١- درة التنزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهة فى كتاب الله العزيز، للخطيب الإسكافى، طبع: دار الآفاق الجديدة بيروت.
٣٢- درر الفوائد وغرر القلائد المعروف بأمالى المرتضى، للشريف المرتضى، تحقيق: محمد أبى الفضل إبراهيم، طبع: الحلبى.
٣٣- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، للإمام أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى ت ١٢٧٠هـ طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٣٤- سنن الدارمى، لأبى محمد عبد الله بن بهرام الدارمى، طبع: دار الفكر بيروت.
٣٥- شجر النور الذكية، لمحمد بن مخلوف، السلفية القاهرة ١٣٤٩هـ.
٣٦- شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلى القدسى، القاهرة ١٣٥٠.

٣٧- شرح السنة، للإمام حسين بن مسعود البغوى ت٥١٦هـ، تحقيق: زهير الشاويش، وشعيب الأرنؤوط، نشر: المكتب الإسلامى بيروت، ط٢ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٨- صحيح البخارى بشرح فتح البارى، لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى طبع: دار الريان للتراث.

٣٩- صحيح الترمذى، لأبى عيسى محمد بن عيسى الترمذى طبع: دار الحديث القاهرة.

٤٠- صحيح مسلم بشرح النووى، لمسلم بن الحجاج، تحقيق: عصام الصبابطى وغيره، طبع: دار الحديث القاهرة.

٤١- طبقات المفسرين، لشمس الدين الداودى ت ٩٤٥هـ. نشر: دار الكتب العلمية بيروت.

٤٢- ظاهرة التَّكْرَار فى القرآن، د/ عبد المنعم السيد حسن. دار المطبوعات الدولية مصر.

٤٣- عروس الأفراح، لبهاء الدين أحمد بن على السبكى. مطبعة: بولاق مصر ١٣١٨هـ.

٤٤- غاية النهاية فى طبقات القراء، لشمس الدين أبى الخير محمد بن محمد الجزرى. نشر: مكتبة الخانجى مصر.

٤٥- فى ظلال القرآن، للشيخ الشهيد سيد قطب. طبع: دار الشروق.

٤٦- لسان العرب، لابن منظور. طبع: دار صادر بيروت ١٣٧٢هـ ١٩٥٦م، وأيضاً دار: لسان العرب بيروت.

٤٧- مجمع البيان فى تفسير القرآن، للشيخ لأبى على الفضل بن الحسن الطبرسى. طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٤٨- مجموع فتاوى ابن تيمية. طبع: المكتب التعليمى السعودى.
٤٩- مختصر سيرة الرسول ﷺ، لمحمد بن عبد الوهاب، تحقيق: محمد حامد الفقى، طبع: مكتبة السنة المحمدية.
٥٠- معالم التنزيل، للإمام محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى الشافعى ت ٥١٦هـ، تحقيق: محمد عبد الرازق المهدى، طبع: دار إحياء التراث العربى.
٥١- معانى القرآن وإعرابه، لأبى إسحاق إبراهيم بن السرى، شرح وتحقيق: د/ عبد الجليل شلبى، طبع: دار الحديث القاهرة.
٥٢- معانى القرآن، لأبى زكريا يحيى بن أبى زياد الفراء ت ٢٠٧، تحقيق ومراجعة: محمد على النجار مطبعة: دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ط٣ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
٥٣- معترك الأقران فى إعجاز القرآن، لجلال الدين السيوطى، تحقيق: على محمد البجاوى، طبع: دار الفكر العربى.
٥٤- معجم المؤلفين لعمر كحالة، المكتبة العربية بدمشق سوريا ١٩٥٧م.
٥٥- ملاك التأويل القاطع بذوى الإلحاد والتعطيل فى توجيه المتشابه اللفظى من آى التنزيل، لأبى جعفر بن الزبير، تحقيق: سعيد الفلاح، طبع: دار الغرب الإسلامى بيروت.
٥٦- نيل الأوطار، للشوكانى. طبع: دار مكتبة التراث القاهرة.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــــــــوع	الصفحة
المقدمة :	٣
المبحث الأول : مفهوم المثانى القرآنية	٨
التمهيد : المثانى فى اللغة	٨
المطلب الأول : المثانى صفة للقرآن	١٠
المطلب الثانى : المثانى صفة لسورة الفاتحة	١٨
المطلب الثالث : جهود تراثية	٣٢
المطلب الرابع : المثانى ضوابط اصطلاحية	٣٩
المبحث الثانى : آفاق المثانى القرآنية	٤٩
المطلب الأول : المثانى ونظام السورة	٤٩
المطلب الثانى : المثانى فى ضوء التفسير التحليلى	٥٧
المطلب الثالث : المثانى فى ضوء التفسير الموضوعى	٧٣
الخاتمة :.....	٨٧
أهم المصادر والمراجع	٩٠
فهرس الموضوعات	٩٥